
الشيماء السيوفي
الأكفان السبع
مجموعة قصصية
ساحر الكتب



الشيماء السيوفي

الأكفان السبع

مجموعة قصصية



دارك للنشر والتوزيع



إهداء

إلى الحي في كل وقتِ ومكانِ بوجداني،

يُطالبني كل يومِ بذِكره،

وينساني.



وفي يوم مالوش ملامح

ولا لُهش زي

والليل سواده كالح

ولا عادش ضي

والكون تمام والناس نيام

وكأنه موت بس في سلام

وانا وحدي صاحي

أنا وحدي خايف

أنا وحدي حي



غرفة إبليس

الرؤية ضبابية والظلام حالك، لا يُبدِّده سوى ضوء شمعة وحيدة على مائدة الطعام المستديرة في منتصف صالة الشقة القديمة، والتي تُلقي بضوئها الخافت على وجوه الخمسة الجالسين حولها، فلا يظهر من ملامحهم إلا ما يجعلها غامضةً مخيفةً فحسب. ثلاثة رجال وامرأتان، لا تظهر الكثير من تعبيرات أيٍّ منهم، لكنك تستطيع تمييز رجلٍ وامرأةٍ متقدمين في السن، على وجهيهما الكثير من الجدية والحزن، ويتطلعان بشيءٍ من اللهفة والقلق، لرجل ممتلئ يرتدي نظارة طبية سميكة، تدحرجت قليلًا على قصبة أنفه، بالإضافة إلى شابٍ نحيفٍ مُتصلِّب النظرات، وامرأة أخرى، يبدو من حركاتها وتعبيرات وجهها، والجزء اليسير الظاهر من ثيابها في الضوء الخافت، أنها من مرتبة اجتماعية أقل ممن حولها.

وحين مدَّ الرجل الممتلئ يدَه ملتقطًا ورقة صغيرة كانت أمامه على الطاولة، وبدأ يقرأ ما فيها بهدوءٍ ورَويَّةٍ، رن صوته في المكان بكلامٍ غريبٍ غير مفهوم، إلا أن له وقعًا مخيفًا، انعكس في شكل توترٍ ملحوظٍ على وجهيِّ الرجل والسيدة الكبيرين، وما يشبه التأهب أو التحفز على وجه الشاب النحيف.

ومع صوت قراءة الرجل، ظهر صوتٌ آخر في الظلام، كأنه يأتي من أحد أركان الصالة، خافتٌ في البداية، لكنه سرعان ما تعالى، حتى بات مسموعًا واضحًا لكل



الموجودين، صوت احتكاك وحفيف وخربشة، وما يشبه رفرفة أجنحة كبيرة.

****

شهق «أحمد» وهو ينهض من نومه مفزوعًا مبلبلَ الفكر، في الغرفة التي يحتل أحد سريريها، والتي اعتاد على إقامته وحيدًا فيها لأسابيع، ينسى عددَها دائمًا، فقط لتصطدم عيناه ذلك الصباح، بشابٍ يجلس على السرير الآخر متربعًا، وعلى ساقيه كتاب، ينظر إليه بنوعٍ من اللامبالاة، والقليل جدًا من الاهتمام، أو الفضول ربما، من منظره الغريب، المضحِك على الأرجح، وهو يصحو منذ ثوانٍ قليلة.

- إنت مين؟؟

قالها «أحمد» متسائلًا، وهو يعتدل على سريره، غيرَ ناسٍ أن يتحسس ذقنه ولحيته الكثيفة المهذبة، ليتأكد أن لعابه لم يسل عليها أثناء نومه، ليجعل منظره أكثر غرابةً وحمقًا، في حين زفر الشاب فيما يشبه الضيق أو الملل، وصمت قليلًا، قبل أن يقول:

- أنا كنت عايز أوضة لوحدي، بس هُمّا جابوني هنا»

عاد ببصره بعدها إلى كتابه، في حين تأمله «أحمد» بشيءٍ من الحيرة، وهو يعود ليسأل:

- إنت نزيل جديد؟

لم يرفع عينيه عن الكتاب، وهو يجيب باقتضابٍ:

- آه..

- بس أنا ماحدش قال لي إن فـــ..



- ولا حد قال لي أنا كمان على فكرة! أنا متفاجئ ومتضايق زيك بالظبط، ولسه قايل حالًا إني لا كنت عايز آجي الأوضة دي! ولا المستشفى كلها من أساسه!!»

اتسعت عينا «أحمد» قليلًا في صمتٍ مصدومٍ، حين قالها الشاب بحدةٍ مفاجئةٍ. ووجد نفسه رغمًا عنه يتابعه ببصره بقلقٍ وتوتُرٍ، ويتحرك ببطءٍ وهدوءٍ وهو ينهض من فراشه، ويبحث عن خفه الملقى أسفله، كأنه لا يريد أن يأتي بأي حركةٍ سريعةٍ أو مُفاجِئةٍ، حين أتاه صوت الشاب ثانيةً، ولكن بلهجة أهدأ تلك المرة، وهو يقول:

- أنا آسف. أنا بس أول مرة أتعرض للموقف ده.. أول مرة أدخل مستشفى أمراض نفسية»

تطلع «أحمد» قليلًا إلى وجهه الأبيض الحليق بحذرٍ، منتبهًا في تلك اللحظة إلى عينيه الداكنتين الواسعتين، وملامحه الوسيمة التي شاعت فيها شبح ابتسامة شاحبة، بادلَه إياها بأخرى مترددةٍ، قبل أن يقول بخفوتٍ:

- يا بختك..

- على إيه؟!

صمت «أحمد» قليلًا، وأطرق برأسه الحليق، وهو يقول:

- عشان عارف دي أول ولّا تاني، ولّا عاشر مرة تتعرض لحاجة. أنا بقى ما أعرفش أنا دخلت مستشفيات نفسية قبل كده ولّا لأ، مش فاكر ولا عارف أي حاجة عن نفسي، ولا عن أي حد، قبل ما آجي



المستشفى هنا. عندي فقدان تام للذاكرة.

صمت الشاب لحظات، متطلعًا لوجه أحمد القمحي المريح، وعينيه الخضراوتين الحزينتين، قبل أن يقول:

- طب ده يا بختك إنت كده..

عقِدَ أحمد حاجبيه في تساؤل صامت حائر، في حين بدا وجه الشاب وكأنه يشحب، وعيناه وكأنهما تزيغان، وهو يقول:

- أنا نِفسي أنسى..

****

«اذكرني حين تغضب، فإني أجري منك مجرى الدم»

****

«شبرا – ٢٠٠٣»

- عايزة أعرف..

بصوت أجش به بحة، كأنها أثر صراخ طويل، ووجه جامد جفّت عليه دموعه، واحمرّ من كثرة اللطم، قالت «رقية» عبارتها المقتضبة، بحزمِ مَن لن يسمح بمناقشته فيما يقول، وهي تجلس أمام «إبراهيم» زوجها، في صالون شقتهما المذهب، بعد انفضاض العزاء. كلاهما يرتدي السواد. هي ساكنةٌ تمامًا، أما هو فيفتح علبة سجائر معدنية، يخرج منها واحدةً يشعلها ليسحب نفسًا طويلًا، يزفره ببطءٍ وهو يقول:

- عايزة تعرفي إيه؟

صمتت قليلًا قبل أن تقول، بنفس الصوت واللهجة



والجمود:

- أعرف كان عايز يقول لي إيه..

زفر نفسًا آخر، وتحشرج صوته كأنه على وشك البكاء، وهو يقول:

- ربنا وحده اللي يعلم دلوقتي..

- بس أنا لازم أعرف!

قالتها بحزمٍ أكبر، جعله يرفع عينيه ليتأملها كأنه لا يفهم أو لا يصدِّق ما تقول، أو يبحث في وجهها عمَّا يشي بهذيان الحزن، لكنها بدت جادةً تمامًا، بطريقة جعلته يقول متسائلًا:

- وهتعرفي إزاي؟؟

- نجيب الراجل اللي قالت عليه «أم عمر» ونـــ....

اتسعت عيناه وهو يقاطعها بحِدَّةٍ:

- لأ! لا يا «رقية» لأ!! سيبيه في حاله بقى! سيبيه مرتاح!!!

علا صوتها هي الأخرى وهي تقول:

- مش يمكن هو كده مش مرتاح؟! مش جايز كان فيه حاجة عايز يـــــ....

- ولا جايز ولا يمكن! أنا لا يمكن هاسمح بحاجة زي دي، ولا لراجل زي ده إنه يخش بيتي!!

هنا نهضت «رقية» من مقعدها، واتسعت حدقتاها بشكلٍ لم يرها عليه زوجها طوال حياته من قبل، لدرجة أنه شعر بخوفٍ حقيقيٍّ منها، وهي تزم شفتيها وتضغط على أسنانها، لتهُبّ به قائلةً:



- وأنا مش هاسكت إلا لما أعرف ابني الوحيد كان عايز يقول لي إيه قبل ما يموت يا «إبراهيم»! مش هاسكت حتى لو مت بعدها على طول!!

****

«- إن كنت صادقًا فأخبِرني من أبغض خلق الله إليك..»

«- أنت يا «محمد».. أنت أبغض خلق الله إليّ..»

****

- تنسى إيه؟

قالها أحمد متسائلًا، ليشرد الشاب قليلًا، قبل أن يقول:

- حياتي كلها.

تطلع إليه أحمد متأملًا، قبل أن يعود ليسأل:

- هو انت اسمك إيه؟ وعندك إيه؟ أقصد يعني.. إيه اللي جابك هنا؟

رفع الشاب عينيه إليه، وابتسم وهو يقول:

- اسمي «علي». وعندي.. اضطراب الشخصية الانفصامية.

انعقد حاجبا أحمد كأنه لا يفهم، ليعود «علي» ويقول مفسرًا:

- تعدد شخصيات يعني، بس هُمَّا بيحبوا الأسامي الطويلة المعقدة دي. أنا حفظت الـــ ٣ كلمات دول بالعافية أصلًا.

حاولَ أحمد إخفاء التوتر الذي اعتراه حين سمع اسم



المرض، وإن بدا وكأن «علي» قد لاحظ ما اعتمل في وجهه، وقطرات العرق التي نبتت عليه، ليضيف بسرعة:

- بس ده اللي هُمَّا بيقولوه! وده مش حقيقي..

- مش حقيقي؟

- أيوه.. أنا عارف أنا فيَّا إيه كويس.

راقبه أحمد بحذرٍ، متسائلًا:

- وإيه اللي فيك؟

ثبَّتَ «علي» عينه في عينه لثوانٍ، وبدا وكأنه يبحث فيهما عن شيءٍ، قبل أن يبعدهما وهو يزفر، قائلًا:

- مش هتصدقني، ماحدش بيصدقني يا «أحمد»..

أراد أحمد أن يقول له شيئًا مُشجِّعًا، كأن يجربه أو.. حين انتبه فجأةً لأمرٍ، جعله يحدق فيه ويهتف فجأةً:

- أنا ماقلتلكش على اسمي! إنت عرفت اسمي منين؟!

****

«كان اسمه في السماء الدنيا، العابد..»

****

«شبرا – ٢٠٠٣»

- ماتخافش يا أستاذ، ده راجل محترم وبتاع ربنا، وكل اللي جابوه شكروا فيه، ماحدش اشتكى منه خالص، لما تشوفه هتصدقني.

قالتها «أم عمر»، زوجة بواب العمارة المجاورة، لتلك التي يقطن بها «رقية» و «إبراهيم»، موجهة حديثها للأخير، وهي تضبط طرحتها السوداء فوق رأسها



المعصب بمنديل مزركش، وبلهجة الواثقين العالمين ببواطن الأمور. ورغم ذلك، فلم يبد الكثير من الاقتناع على وجه «إبراهيم»، وهو يهز رأسه لها شاردًا، وجل تركيزه مع زوجته التي عافت الطعام والشراب والنوم تقريبًا منذ أيامٍ، حتى خشيَ أن يفقدها هي الأخرى. وللأسف.. للأسف سيضطر للموافقة على الإتيان برجلٍ يساعدهما على التحدث لـ «إسماعيل»، أو بمعنى أدق، يحضِّر روحه كي يستمعا إلى ما كان يود قوله قبل أن يموت بدقائق.

****

«وفي الثانية، الزاهد»

****

- إنت مش اسمك «أحمد عبد الله» برضو؟

قالها «علي»، وهو ينظر في عين أحمد التي لم ينقص اتساعها، وهو يعاود سؤاله:

- أيوه إنت عرفت إزاي؟!

التوى فم «علي» في ابتسامةٍ شاحبةٍ، وهو يقول:

- إنت قررت تخاف منِّي وخلاص من ساعة ما عرفت أنا عندي إيه، مش كده؟

- وانت لسه ماجاوبتش على سؤالي!

زفر «علي» بطريقته المتأرجحة ما بين الضيق والملل، وهو يقول:

- هاكون عرفت منين يعني يا «أحمد»! لما جيت،



قالوا لي اسم النزيل اللي هاقعد معاه في نفس الأوضة.. سهلة يعني!

ظلَّ أحمد يتطلع إليه قليلًا بشكٍ، حتى إن ملامح «علي» اكتست بشيءٍ من الحزن، وهو يخفض عينيه ويديرهما نحو كتابه، قائلًا:

- على العموم تقدر تتأكد منهم بنفسك لو عايز.

مرت فترة حرجة من الصمت، قطعها صوت أحمد وهو يقول:

- ماقلتليش طيب إنت عندك إيه.

رفع إليه «علي» عينين مليئتين بالحزن، وهو يقول بخفوتٍ:

- ما انا قلت لك مش هتصدقني.

شعر أحمد بقليلٍ من الأسف تجاهه، ليقول بسرعةٍ:

- جرب طيب.

بدا على «علي» بعض التردد، قبل أن يسحب نفسه عميقًا ملأ به صدره وهو يغلق كتابه، ويستدير على فراشه ليواجهه وينظر في عينيه، وهو يهمس:

- أنا ممسوس

****

«وفي الثالثة، العارف»

****

ظلَّ وجه أحمد متصلبًا بعد عبارة «علي»، لمدة ليست بالقصيرة، وهو يفكر بأن ما يقوله عرض من أعراض



مرضه بلا شكٍّ. ربما إحدى شخصياته مقتنعة أنه ممسوس. وعلى أية حالٍ، فالأمر لا يُطمئِن كثيرًا، حتى إنه لا يدري أيهما أسوأ، أن يكون ممسوسًا حقًا، أو يظن أنه كذلك فحسب، ففي كلتا الحالتين، هو في وضعٍ لا يُحسَد عليه وهو معه، وربما عليه التحدث لأحد الأطباء أو لإدارة المستشفى بشأن ذلك، كي ينقلوا أحدهما إلى غرفة أخرى.

- خايف منِّي؟

قالها «علي» بصوتٍ خافتٍ، قاطعًا به أفكاره، فلم يدرِ كيف يرد عليه. فقط استطاع أن يهز رأسه هزةً خفيفةً يمينًا ويسارًا علامة النفي. ولم يبد الكثير من الاقتناع على وجه «علي» رغم ذلك، وهو يضيف:

- عامةً، أحب أقول لك إني مش مؤذي، الموضوع ده مش بيئذي حد غيري، أنا بس اللي مش عارف أهرب منه، ولا عارف أنسى.

ثم صمت قليلًا، واتسعت عينه فيما يشبه غضبًا مكتومًا، وترقرقت فيها دمعةٌ حبسها بداخلها، وهو يكمل بصوت أجش متحشرج:

- تخيل لما يبقى جواك اتنين، اتنين مع بعض بكل ذكرياتهم وأفكارهم وكوابيسهم، تخيل عذاب شخص واحد عاش حياة صعبة ومؤلمة، مضروب في اتنين!

ظل أحمد ينصت له في انتباه صامت، يختلط فيه الاهتمام، بعجزٍ حقيقيٍّ عن الإتيان بأي ردة فعل، و «علي» يكمل:



- ساعات ذكرياتي وأفكاري بتسلم لذكرياته وأفكاره هو، كأن فيه بينهم مواعيد تناوب في العمل على عقلي، كأن واحدة فيهم بتشتغل الصبح عشان تسلم للتانية بالليل، لدرجة إن فيه أيام.. مابانامش، مابانامش خالص! وبقى لي على الحال ده ٣ سنين.

و «أحمد» على صمته، لا يستطيع إبعاد عينيه عن عيني «علي» الداكنتين الواسعتين أصلًا، وقد اتسعتا بطريقةٍ جعلتهما مرعبتين إلى حدٍّ كبيرٍ، لا يعرف أيخاف منه، أم يشفق عليه مع الدموع التي ملأتهما أكثر، وجعلته يشيح بوجهه عنه وهو ينهض متجهًا للمرآة الصغيرة المعلقة على الحائط المقابل، ليوليه ظهره وهو يخرج أشياء من درج بالخزانة أسفلها، تبيَّنَ لـ «أحمد» أنها علب عدسات لاصقة صغيرة مع محلولها.

- إنت نظرك ضعيف؟

شعرَ بغباء سؤاله فور أن ألقاه، فمن غير الطبيعي أو المعتاد لرجلٍ أن يضع عدساتٍ لاصقةً ملوَّنةً للزينة مثلًا! لا بُدَّ أنها شفافة، ولضعف النظر، ليطلق «علي» ضحكةً قصيرةً، ظن أحمد أنه يسخر منه بها، قبل أن يتبين ما فيها من مرارةٍ، حين سمعه يقول:

- اللي يشوف اللي أنا شُفته، لازم نظره يضعف.

وحين انتهى «علي» من ضبط عدساته، أو غسلِها بالمحلول، أو فِعْلِ أيٍّ ما كان يفعله أمام المرآة، عاد إلى سريره ليجلس عليه في مواجهة «أحمد»، الذي شعر أن عليه أن يقول شيئًا ما، من باب الاهتمام والتعاطف



الحقيقي مع زميله ربما، وربما كي لا يُغضب هذا المجنون الممسوس، متعدد الشخصيات، دون أن يدري.

- طب وهو عايز منك إيه؟ اللي.. معاك ده..

صمت «علي» لحظاتٍ، وعينه في عين «أحمد»، وبوجهٍ جامدٍ ولهجةٍ تَقريريَّةٍ، كأن ما يقوله منطقيٌّ تمامًا، بل وبديهيٌّ كذلك، أجاب:

- عايز ينتقم..

****

«وفي الرابعة، الولي..»

****

ربما للمرة الأولى منذ جاء للمستشفى، يشعر أحمد ببعض الامتنان لتلك الأنشطة المملة التي ينظمونها لهم عقب فقرة الإفطار، التي كان حلولها بمثابة منقذ له من حديث «علي» الغريب عن المس والانتقام، والذي لا يؤمن بصحته البتة طبعًا، وإنما يخشاهُ لما له من دلالةِ على سوء حالته العقلية. سيتحدث بشأن هذا الأمر لواحدِ من العاملين بالإدارة بعد انتهاء الأنشطة وقبل عودتهما للغرفة. يجب ألا ينسى هذا.

لكنه رغم ذلك، لم يتعمّد تجنبه، كي لا يثير حفيظته ربما، إلا أن «علي» نفسه هو الذي بدا منعزلًا عنه وعن كل من حوله، وهو لا يذكر أنه رآه حتى يتحدَّث لأيٍّ من النزلاء أو الأطباء أو العاملين بالمستشفى طوال فترة النهار. وهو أمرٌ يفهمه أحمد إلى حدٍّ ما، لأنه جديدٌ



بالطبع، ولم يكوّن أي صداقات أو علاقات بعد. حتى هو نفسه، وهو يسبقه بعدة أسابيع هنا، ليس له صداقات أو علاقات كثيرة أيضًا.

وحين شعر بوطأة التعب والدوّار اللذين يليا غالبًا تناوله لجرعة أدويته الصباحية، وجد نفسه غير قادرٍ على الإتيان بأي شيءٍ أكثر من الاتجاه لغرفته، التي كانت ما تزال خاليةً لحسن الحظ، لأن «علي» لم يعد إليها بعد على ما يبدو، وإلقاء نفسه فوق فراشه، ثم الغياب في سباتٍ عميقٍ، لا يعرف حتى متى انساب إليه بالضبط.

****

«وفي الخامسة، التّقي..»

****

لم يعرف ما أيقظه فجأةً، لكن الدوّار لم يفارق رأسه، مع صداعٍ لا يعرف من أي مكان في جمجمته يأتي بالضبط. الغرفة تسبح في ضوء أصفر ناعم هادئ، يتسلل إليها من بين فرجات الستائر، التي لا يذكر متى ولا كيف أغلقَها قبل أن ينام؟ لا ريبَ أنه كان شديد التعب، وما زال. الساعة على الحائط تشير للثانية والربع مساءً، لا زال هناك وقتٌ لأداء صلاة الظهر قبل أن يؤذن العصر إذًا.

دفع نفسه دفعًا من فراشه متجهًا للحمّام الملحق بالغرفة، وطرق الباب. هل كان هذا الباب مغلقًا هو



الآخر؟ لماذا يذكر أنه كان مفتوحًا حين دخل الغرفة؟ هل «علي» بالداخل؟ لكنه لا يرى أي ضوء ينبعث من فرجات الباب، والحمام في العادة مظلم، يحتاج لإضاءة صناعية حتى أثناء النهار. هل جاء وخرج ثانية؟ هل حانَ وقت التجول في الحديقة بعد؟ أم إنه يراجع طبيبه الآن؟

وحين طرق ثانيةً للتأكُّد، ولم يأته أي رد، أدار مقبض الباب وفتحه و.. كادت شهقته القوية تمزق صدره، بل وتشقه هو نفسه نصفين، وهو يرى الجسد المنحني على الحوض، موليًا ظهره له. رغمًا عنه اتسعت عيناه عن آخرهما، وتراجع بظهره حتى ارتطم بالحائط الواقع خلفه بعنفٍ، وهو يدفع قدميه في الأرض باستماتة كأنه يرغب في اختراق ذلك الحائط، والعبور منه إلى الجهة الأخرى هربًا. كان ذلك حين أتاه صوت من داخل الحمَّام، يقول:

- اقفل الباب ده وامشي من هنا.

****

- عـــ... علي؟؟

بحلقٍ جافٍّ، ونبرةٍ غيرِ مصدقة متوسلة، ألقى أحمد سؤاله على الجسد المحني أمامه، والذي لم يغيِّر وضعَه، وإن بدا بعض الضيق والملل المعتاد، بالإضافة إلى التعب، في صوتِه وهو يقول:

- هيكون مين يعني؟! اقفل الباب وسيبني لوحدي من فضلك!



وحين بدأ عقله يستعيد بعض صفائه، بعد انقشاع موجة الفزع السابقة، استطاع استشفاف نبرة الإعياء في صوت زميله، ليجد نفسه يسأله بقلقٍ:

- إنت.. إنت كويس؟؟

- اقفل الباب وامشي من هنا باقولَّك!!

كان صوته تلك المرة أقرب للصراخ الذي أجفل له، وجعله يشعر بخوفٍ طفيفٍ، من أن يمد حتى يده داخل الحمّام لالتقاط المقبض. وحانت منه نظرة نحو انعكاس وجهه في المرآة المعلقة فوق الحوض الملقى فوقه جسد «علي»، فشعر ببعض الحرج من صورته التي تبدو على قدرٍ بالغٍ من النضوج، وهو خائفٌ من شاب شاحب نحيف كـ «علي»، بل ويبدو في حالٍ سيئة من الإعياء كأنه يتقيأ. صحيح! كيف لم ينتبه لتكوينه الجسدي النحيف، وملابسه الأنيقة من البداية؟! كان يجب ألا يحرج نفسه هكذا.

وحين صرخ عليه «علي» للمرة الثالثة أن يغلق الباب ويبتعد، مدّ يده بالفعل للمقبض، الذي شعر به باردًا جدًا لسبب غير مفهوم، حتى إن قشعريرة خافتة سرت في جسده وهو يمسكه، قشعريرة تحولت لما يشبه صدمة كهربائية عنيفة، حين سمع في تلك اللحظة طرقتين على باب الغرفة، الذي انفتح بعدها ليظهر على عتبته «علي»! ببنيته الضئيلة نوعًا وجسده النحيف! بنفس الملابس التي يرتديها ذلك المنحني على الحوض في الحمّام الذي يغلق بابه الآن!! وبابتسامةٍ عريضةٍ على



وجهه الوسيم، وهو يقول:

- إيه ده انت بتعمل إيه هنا؟ ومالك عامل كده ليه؟

لا يذكُر أنه صرخَ، ولا يعرف ما فعله بالضبط، لكن العالم من حوله اسودَّ فجأةً دون أن يدري.

****

فتح عينيه عن آخرهما، ليطالعه سقف غرفته وهو على فراشه، وسط ظلامٍ خفيف، لا يبدده سوى ضوء المصباح الصغير على الكومود المجاور. وعلى ضوء ذلك المصباح، استطاع تبين حدود جسد «علي»، النائم بعمقٍ على ما يبدو، على الفراش الآخر. لم يتوقف قلبه عن الخفقان بعنفٍ، ولا كفت عيناه عن الدوران بسرعةٍ حائرةٍ متفحصةٍ لكل ما حوله، وبالأخص لــ «علي». وفي تلك الإضاءة الضعيفة التي تغمر الغرفة، شعر أنه على وشك أن يجن فزعًا، لينتفض جسده فجأةً ناهضًا من مكانه، ومتجهًا نحو زر الإضاءة ليضغطه، فيسبح المكان في إضاءة الفلورسنت البيضاء، المطمئنة إلى حدٍّ كبيرٍ.

بدا وكأن الضوء القوي قد أقلقَ النائم الذي تململ قليلًا في رقدته، قبل أن يفتح عينين مكرمشتين من أثر النوم، ويتطلع بحيرة المتيقظ توًا إلى «أحمد»، كأنه لا يفهم ما يفعله، ولا لماذا يوجه له تلك النظرات القلقة المتفحصة، ثم يغلق عينيه ثانيةً، وهو يقول بصوتٍ مُتكاسِلٍ:

- اطفي النور ده يا عم أنت، عايز أنام.



لَكِنَّ أحمد تجاهل طلبه تمامًا، ليهتف به، وهو ما يزال يتفحصه بخوفٍ:

- إنت جيت إمتى؟؟

- .. جيت منين؟

- جيت الأوضة إمتى؟؟ إنت ما كنتش هنا لما أنا جيت ونمت!

بدا وكأنه يحاول محاصرته بالأسئلة ليتبين كذبه إن كان يكذب، لكن «علي» فتح عينيه وهو يغمغم بطريقة طبيعية تمامًا، وبنفس التكاسل:

- جيت الساعة.. ٣ تقريبًا، وانت كنت نايم فعلًا.

بدأت الأمور تهدأ قليلًا في عقله، ليفطن أنه كان يحلم بلا شكٍ. منظر «علي»، ولهجته وتصرفاته، كلها طبيعيةٌ بالفعل. وربما هو فقط متأثرٌ بما سمعه عن حالته، لذلك أقحمه في كابوسه المريع هذا.

- شكلك مش ناوي تطفي النور النهارده. ماشي.

قالها «علي» باستسلام وهو يتثاءب وينهض متمطيًا من سريره، ومترنحًا باتجاه الحمّام، ليغيب فيه بضع دقائق، ثم يعود ليرتمي جالسًا مرةً أخرى، في الوقت الذي لا يتحرك أحمد فيه قيد أنملة من مكانه، حتى إن «علي» رفع عينيه إليه، وهو يقول:

- مالك فيه إيه؟ هتفضل واقف كده؟

انتبه إليه أحمد فجأةً كأنه يفيق من نومٍ أو شرودٍ عميقٍ، ليحدق في وجهه قليلًا، ثم يقول:

- إحنا اتقابلنا قبل كده؟؟



****

«وفي السادسة، الخازن»

****

كرمش «علي» عينيه المكرمشتين أصلًا من أثر النوم، وهو يتطلع لـه بتساؤلٍ مُستنكرٍ، ويقول:

- طبعًا اتقابلنا!

اتجه أحمد إلى سريره بسرعة البرق ليجلس عليه محنيَ الظهر، متحفز كالقط وهو يهتف:

- إمتى وفين؟؟

- النهارده الصبح أما انت صحيت، وعلى الفطار، وعلى الغدا و...

ليقاطعه أحمد بضيقٍ:

- أنا قصدي قبل المستشفى.

صمت «علي» قليلًا ليتثاءب، قبل أن يرد بهدوءٍ:

- لا ما اتقابلناش.

مرت فترة أخرى من الصمت، ظل أحمد فيها يحدجه بنظرات قوية متفحصة، بعينيه الخضراوين الضيقتين ككشافين صغيرين، وبطريقة جعلته يتراجع بجسده قليلًا فيما يشبه الشك، كأنه ضائق من هذا التحديق السافر، ليعود أحمد ويقول:

- أمّال أنا ليه ساعات باحسّ إني عارفك؟!

- ممكن تكون شُفتني قبل كده ومش فاكر، لأنك مش فاكر أي حاجة عن حياتك أصلًا. لكن أنا بقى مشكلتي



إني فاكر كل حاجة وبدقة، ومتأكد إننا ما اتقابلناش. وبالمناسبة.. ذاكرتي القوية دي أهم دليل يثبت صحة كلامي قبل كده عن حالتي.

- يعني إيه؟

- مريض تعدد الشخصيات في الغالب بينسى تفاصيل وأحداث متعلقة بشخصية من شخصياته، لما بيكون في شخصية تانية، لكن أنا لأ، أنا فاكر كل حاجة فيما يشبه التوازي، وفاصل بين الاتنين كويس.

لم يبد على أحمد اهتمام كبير بما يشرحه عن حالته. بدا أن تركيزه كله منصب على وجهه وعينيه، كأنه ما زال يحاول تذكره، ولم ترتفع عينه عنه طوال حديثه الذي انتهى بضحكة، وهو يقول:

- بس كل ده مش مبرر إنك تفضل مبحلق لي كده كتير، وإلا هابدأ أشك فيك!

أفاق أحمد من تحديقه على الضحكة، واتسعت عيناه حرجًا ليهدّئ «علي» من قهقهته، مضيفًا:

- ماتتخضش كده أنا باهزر. تاخد سيجارة؟

****

صوت الحفيف والأجنحة يتعاليان. ورائحة شياط عجيبة، بدأت الأنوف تتبينها، تنتشر في صالة الشقة القديمة. الخمسة الجالسين حول الشمعة يحاولون التماسك، لكن الأمر يبدو صعبًا للغاية، حتى الرجل الممتلئ ذو النظارة بدا عليه القلق وهو يقرأ، لكنه رغم ذلك أكمل رافعًا صوته فوق كل الضجيج المحيط



المخيف. أما الشاب النحيف، فقد راحت عيناه تتحركان بسرعةٍ جنونيةٍ كأنه يحاول أن يفهمَ أو يسمع أو يرى شيئًا، لتتسعا فجأةً بشكل غير آدمي على الإطلاق، وهو يصرخ:

- وقَّف! وقَّف فيه حاجة غلط!! وقَّف!!!!!

****

لم يدرِ أحمد متى نام واستيقظ، أو إن كان قد نامَ أصلًا. لا يعرِفُ إلا أنه شعر بإفاقة ما من شيءٍ ما، وأن ضوء الفجر يتسلل من فرجات الستائر الرفيعة، ليطلي الغرفة بضوءٍ أزرق غامض حزين. الغرفة خالية إلا منه، والسرير المجاور خالٍ. وحين جاء صوت السعال القوي المختنق من جهة الحمَّام، تساءلَ إن كان هذا ما أيقظَهُ من الأساسِ، لينهض متتبعًا إياه، وقد بدا وكأنه يخرج من شخصٍ يختنق أو يغرق، ليجد باب الحمَّام مفتوحًا، و «علي» ملقى على الحوض، منحنيًا عليه كما.. كما رآه في المرة السابقة.. في ذلك الكابوس المريع.. بالضبط!

****

هل يخبط رأسه بيده أو بالجدار ليتبين إن كان صاحيًا هذه المرة، أم يتبين ما أصاب ذلك الذي يبدو وكأنه على وشك الموت اختناقًا؟ أم ماذا يفعل بالضبط؟؟ في النهاية وجد نفسه يهتف رغمًا عنه:

- فيه إيه يا «علي»؟! إنت كويس؟؟

من وسط السعال العنيف، جاءه صوته أجشًا غريبًا محشرجًا:



- أيوه.. مش إنت من هنا دلوقتي؟

وأمام عينيه المتصلبتين على المنظر، ظهرت فجأة بضع نقاط من الدماء على قميص «علي» من الخلف، في موضعين مختلفين، وظلت تلك النقاط تتزايد، حتى كوَّنت ما يشبه خطين رأسيين، يقعان على مسافة متساوية، على يمين العمود الفقري ويساره. وسرت في جسد أحمد برودة عجيبة وهو يطالع ذلك المنظر الغريب، كأنه جرح نبت ونزف فجأة من العدم. وبدا وكأن صوته منفصل عن حلقه، كأن له إرادة خاصة به، وهو يعود ليقول:

- إنت مال ضهرك؟؟ أ.. أنده لك حد من الـــ..؟

- لأ..! لأ ماتندهش حد وامش حالًا!!

جاءت العبارة تلك المرة بحشرجة جعلتها أشبه بزمجرة غير بشرية،كأنها زمجرة.. حيوان! لكنه رغم خوفه، لم يتحرك من مكانه، لم يكن للأمر علاقة بأي شجاعة أو شهامة، بل بدا وكأن قدميه ثقيلتان متمسمرتان في مكانهما على باب الحمَّام، لأنه حقيقة أراد الابتعاد، أراد الخروج فعلًا من الغرفة كلها والصراخ في أيِّ شخصٍ طلبًا لأي نجدة، نجدة له، أو لهما، أو أي خلاص وحسب، من هذا الموقف الغريب الذي لا يفهمه، ولا يفهم حتى كيف بدأ و...

كان ذلك حين ارتفع رأس الجسد المحني أمامه قليلًا، ومستديرًا له بزاوية غريبة للغاية، ليطالعه وجه «علي» الحليق الوسيم الذي يعرفه، فقط كانت عيناه الواسعتان



مشقوقتين بالطول كأعين الثعابين.

****

كان متأكدًا هذه المرة أنه صرخ وهو يفتح عينيه. لكن هل تجاوزت الصرخة حلقه؟ هل هو في فراشه يطالع سقف الغرفة التي تسبح في ضوء النهار الدافئ المطمئن حقًا؟ أكان نائمًا يحلُم حقًا؟ بكابوسٍ آخر؟! وهل صحا أخيرًا أم إن هناك المزيد في انتظاره؟؟

هبَّ جالسًا يُجيل عينيه فيما حوله. الغرفة خالية إلا منه، وسرير «علي» خالٍ ومرتَّب بعناية. هبَّ من مكانه ثانية نحو الحمّام متأكدًا من خلوّه هو الآخر، وتنفس الصعداء حين وجده خاليًا بالفعل. لا توجد فرصة أنسب من هذه كي يسرع ويبلغ أحدهم برغبته في تغيير الغرف قبل أن ينسى أو يلهيه أي شيء آخر، قبل أن يعود «علي» فيجد في نفسه شيئًا، ولو طفيفًا، من التعاطف نحوه، ودون أي مشاكل أو نظرات محرجة قد تشي بما هو مُقدِمٌ عليه، فهو يشعر، بطريقةٍ غريبةٍ، وكأن «علي» قادِرٌ على قراءة أفكاره نفسها، قادرٌ على استشفاف ما في نفسه من رغبةٍ في الهروب منه، ولا يدري ما قد تكون ردّة فعله تجاه ذلك. لا يهمه إن كانت كل شكواه منه هي بضعة كوابيس تُراوِده منذ مجيئه. هو لا يشعر بالراحة تجاهه. وليس مجبرًا على إبداءِ أيِّ أسبابٍ لذلك. سيبتعد عنه وحسب.

فجأةً ربَطَ شيئين عجيبين ببعضهما البعض، ورغم ذلك الجزء الصغير من عقله، الذي أهاب به أن يترك كل



شيءٍ ويسرع لتنفيذ عزمه فحسب، إلا أن فضوله، ورغبته في إثبات صحة فرضيته، غلبَاهُ وهو يتجه للخزانة الصغيرة ذات الأدراج، أسفل المرآة، إلى الدرج الذي رأى «علي» يضع فيه غُلب عدساته وحاجياتها. دعا الله ألا يأتي الآن فجأةً وهو يفتح الدَّرَج. وكما توقع بالضبط، لم يجدها بسهولةٍ، ولم يكن غطاؤها شفافًا من الخارج لسوء الحظ، فاضطر لفتحها بحذرٍ وبأصابع مرتجفةٍ، محاذِرًا أن يسكب منها شيئًا، أو أن يترك خلفه أيَّ أثرٍ. وشحَبَ وجههُ لما رآه. فقد كانت العدسات ملوَّنةً بالفعل، لها نفس اللون الداكن الذي يعرف به عيني «علي»، لون يخفي ما أسفله، يخفي أنهما.. أنهما..!

جفَّ حلقه وهو يعيد كل شيء لمكانه ويعيد إغلاق الدرج. وكاد قلبه يقفز من حلقه من شدة خفقانه وهو يسرع تاركًا الغرفة، مهرولًا في الممر الخارجي، وسائلًا نفسه: أيكفيه حقًّا أن يغير غرفته فحسب، أم أنه سيضطر لترك المستشفى كلها، هربًا من «علي»؟؟

****

جلس أحمد في المقعد أمام مكتب د/داوود، الطبيب المتابع لحالته، يفرك كفيه تأهبًا في انتظاره، يحضِّر ما يريد قوله، ويرتبه في عقله جيدًا، كي يأخذه على محمل الجد، يحدق في الساعة المعلقة على الحائط متابعًا عقاربها. مرت خمس دقائق، ثم عشر، ثم ربع ساعة، ثم بدأ يشعر أن الطبيب تأخر أكثر من اللازم. وعندما مر ثلث ساعة كامل، شعر أن شئ ما خطأ.



وحين بدأ بالفعل يفكر في النهوض ليسأل عما هناك، أتى «داوود» أخيرًا، وعلى وجهه ابتسامته العريضة المعهودة المشجِّعة، والتي يراها أحمد مبتذلةً مُبالَغًا فيها في كثيرٍ من الأحيان، ورغم ذلك، فقد بدت له تلك المرة، أجمل ما يمكن أن تقع عينه عليه.

- عامل إيه النهاردة يا «أحمد»؟ مدام «خديجة» اتصلت تسأل عليك من شوية على فكرة.

قالها «داوود» وهو يجلس خلف مكتبه، ليفغر أحمد فاه فجأة، وينعقد حاجباه قليلًا، قبل أن يردد خلفه بلهجة عجيبة:

- (خديجة)؟؟!

****

- معقول نسيتها؟؟

لكن السؤال لم يأتِ لـ «أحمد» من أمامه، من جهة «داوود»، بل من جانبه، من جانب أذنه اليسرى بالضبط، وبطريقة جعلته ينتفض في مكانه متسع العينين، ملتفتًا جهة الصوت، ليرتطم بصره باللا أحد، اللا شيء، لم يكن هناك شخص يقف إلى يساره كي يهمس في أذنه بأي شيء.

- فيه إيه يا أحمد مالك؟؟

قالها «داوود» متسائلًا، فعاد أحمد إليه بعينيه المتسعتين، قائلًا بذهولٍ خائفٍ:

- أنا.. سمعت صوت!

- صوت إيه؟



- زَيّ ما يكون هَفس أو.. وسوسة في ودني الشمال و..

صمت وعيناه تتسعان أكثرَ، ليُعاجِلَه «داوود» بسؤالٍ جديدٍ:

- وكان بيقول لك إيه الصوت ده؟

شردَ أحمد ببصره قليلًا، وزاغت عيناه كأنه في عالمٍ آخر، قبل أن يلتفت لـ (داوود) فجأةً قائلًا:

- أنا عايز أتنقل من الأوضة اللي أنا فيها!

- الصوت كان بيقول لك كده؟؟

- لأ..! أنا عايز أتنقل. عايز أسيب الأوضة دي بأي شكل!!

- حاضر حاضر هانقلك لو عايز. إهدا بس وقُل لي ليه؟ إيه اللي مضايقك فيها؟

همس كأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- «علي»..

- «علي» مين؟

- «علي» اللي معايا في الأوضة!

صمت (داوود) قليلًا، قبل أن يقول:

- بس انت مافيش حد معاك في الأوضة اسمه «علي».

****

«وفي السابعة، عزازيل»

****



خيل لـ أحمد أنه لم يفهم عبارة «داوود» الأخيرة، وهو يحدق فيه بفمٍ فاغر وعينين متسعتين، ووجه شاحب كالجثث، وتعبير ذاهل كالموشك على الصراخ في هيستيرية، والأخير يفتح درجًا من أدراج مكتبه ليخرج منه علبة سجائر أنيقة، ينتقي منها واحدةً ليشعلها ويسحب منها نفسًا بهدوءٍ بالغٍ و.. أكان «داوود» مُدخنًا حقًا؟! لم لا يذكر رؤيته له ممسكًا بسيجارة من قبل؟؟

- لأ بس حلوة حكاية فقدان الذاكرة دي. تصدق دخلت عليا!

قالها «داوود» بفمٍ ملتوٍ قليلًا، كأنه على وشك الابتسام، وهو يزفر دخان سيجارته، وفي عينيه تعبيرٌ هادئٌ مرتخٍ، وملامح أحمد تكاد الكلمات تعجز عن وصفها، وهو يشعر بما يشبه دوارًا عنيفًا إلى حدًّ لا يطاق. الغرفة من حوله بدأت تبدو وكأنها تهتز، محتوياتها تبدو متراقصةً كأنها تحوَّلت لحوض ماءٍ كبيرٍ، الستائر الزرقاء المسدلة دومًا، الساعة المعلقة على الحائط، وعينه عاجزة عن قراءة عقاربها، المكتب البني باذخ الفخامة، والنتيجة الصغيرة فوقه، التي تشير لشهر سبتمبر لعام ٢٠٠٦، لماذا يخيل له أنها أصبحت ٢٠٠٣ فجأة؟؟ حتى وجه «داوود» نفسه يبدو مختلفًا وسط كل هذا التموج المشوش، يبدو كوجه شخص آخر، شخص يشعر وكأنه يعرفه جيدًا، لكنه لا يذكره على الإطلاق.



****

«- لا ما اتقابلناش..»

****

- .. بس أنا عارفك.

جاءته العبارة مرة أخرى من يساره، فالتفت بسرعة لمصدرها، ليجد أنه «علي»، الذي جلس مبتسمًا فوق فراشه في.. الغرفة؟!! ما الذي أتى به إلى الغرفة الآن؟! ألم يكن حالًا في مكتب الطبيب؟! ما الذي يحدث بالضبط؟؟

لكنه رغم كل ما يدور حوله، فقد تمكّنَ من إجبار فمه على التحرك بصعوبة، سائلًا:

- عارِفْنِي؟؟!

اتسعت ابتسامة «علي»، وقد بدت معالم الغرفة واضحةً الآن، وبدا واضحًا لـ أحمد أنه يجلس على فراشه هو الآخر، في الغرفة فعلًا، و «علي» يقول:

- صباح الفل! إنت رجعت تحلم تاني ولّا إيه؟!

شعر أن عقله على وشك الانفجار، وهو لا يستوعب ما يحدث. أكان يحلم ثانية حقًا؟ متى بدأ ذلك الحلم إذًا؟! وهل انتهى؟ وكيف عرف «علي» بأمر أحلامه المخيفة تلك أصلًا، وهو لا يذكر أنه حكى له عنها أي شيء؟! فقط لينهض «علي»، و يعاجله مضيفًا:

- بس انت إزاي تنسى «خديجة»؟ حد ينسى حب حياته برضو؟؟



شعر أن مخه يحترق، والمرئيات تعود لتتراقص كما لو كانت في حوض ماء مرة أخرى، وراح وجه «علي» يتشوه متغيرًا هو الآخر، متخذًا نفس الملامح التي اتخذها وجه «داوود» في الـ.. المكتب؟! الحلم؟؟ نفس الوجه الذي يعرفه ولا يذكره، الوجه الذي اقترب منه بشدة، حتى كاد يشعر بلفح أنفاسه الحارة، وهو يصرخ:

- خديجة إسماعيل محمد»! الاسم ده مش بيفكرك بحاجة خالص؟!

****

- (أحمد)! أحمد إنت رحت فين؟ إنت كويس؟؟

أفاق أحمد ذاهلًا على صوت «داوود» القلق المتسائل، وهو ينظر حوله إلى محتويات المكتب التي سكنت وبدت أخيرًا طبيعية تمامًا، ورغم ذلك، فقد أراد أن ينهض ليتحسسها ويتحسس نفسه، بل ويتحسس «داوود» ذاته إن لزم الأمر! ليتأكد أن كل شيء في موضعه بالفعل.

أخيرًا وجد صوته وشعر بفمه، ليهتف صارخًا:

- «علي»! «علي» بيعمل حاجات غريبة..! أنا هاتجنن!! أنا باشوف الـــ.. باشوف حاجات..!

- «علي» اللي بتقول إنه معاك في الأوضة؟

صرخ أحمد بثورة:

- هو معايا فعلًا! أنا مش مجنون!! أنا شفتـــــ..

ليقاطعه (داوود) قائلًا:

- هو قال لك إن اسمه «علي»؟؟



****

«وفي اللوح المحفوظ، إبليس..»

****

- أكيد بيكدب لأنه شيطان! «علي» ده إبليس! «علي» ده إبليس نفسه!!

****

«شبرا – ٢٠٠٣»

لم يكن أمام «إبراهيم» سوى الإسراع بالاتفاق على يوم يأتي فيه الرجل «بتاع ربنا»، خوفًا على زوجته من الموت أو الجنون.. وبالفعل، جاء المدعو «جبريل» في اليوم المحدد، والميعاد المحدد، مع «أم عمر» زوجة البواب. و قد بدا بامتلائه، ونظارته الطبية السميكة، أقرب لموظف حكومي أو مدرس جغرافيا، منه إلى شيخ أو ساحر، أو حتى رجل بتاع ربنا، كما تصفه «أم عمر». جاء ومعه شاب نحيف صموت، في عينيه شيء غريب لا يمكن تحديده أو تسميته، لكنه غيرُ مريحٍ بشكلٍ ما، وقد بدا وكأنه مساعده أو شيء من هذا القبيل.

ومع دخول الثلاثة صالة الشقة القديمة بشبرا، وصل لمسامع الجميع ما يشبه صراخًا من شقة أو عمارة مجاورة، بدا مريعًا وقريبًا جدًا، حتى إن «رقية» أجفلت وضربت صدرها بكفِّها، وهي تقول:



- بسم الله الرحمن الرحيم! إيه الصريخ ده جاي منين؟؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. تلاقيه الحاج «إسماعيل» اللي في عمارتنا بيتخانق مع واحدة من بناته. ربنا يهديه عليهم ويهدي سرهم يا رب!

قالتها «أم عمر» متصعبة، وقلب «رقية» يخفق مع سماع الاسم، لتغمز «إبراهيم» كي يبدأوا جلسة التحضير دون تأخير. وبالفعل، بدأ الجميع بتنفيذ كل ما يطلبه منهم «جبريل» بدقة.

****

- إهدا يا «أحمد»! إهدا من فضلك!

كذا هتف «داوود»، وهو يضغط زرًا بجهاز صغير على مكتبه، وينهض بسرعة ليحاول إمساك أحمد من كتفيه، وهو يقول:

- زميلك في الأوضة ده مجرد مريض عنده اضطراب تعدد شخصيات، و «علي» ده اسم واحد من الشخصيات اللي هو بيألفها ويديها أسامي وتواريخ وتفاصيل كاملة ودقيقة جدًا.

بدا وكأنه يفكر قليلًا فيما يقوله الطبيب، قبل أن يهز رأسه بإصرارٍ غير مصدق، هاتفًا:

- لأ! إنت ماشفتش اللي أنا شفته! «علي» ده مش بني آدم أنا متأكد!!

- بني آدم عادي صدقني، واسمه الحقيقي «خالد».

في تلك اللحظة ظهر ممرضان على باب الغرفة،



واتجها بسرعة نحو أحمد ليُكبِّلا حركته، كي يتمكن الطبيب من إعداد حقنة مهدئ، ليكشف ذراعه ويحقنها بها، و «أحمد» يحاول الفكاك، صارخًا:

- لأ! لأ ماترجعونيش معاه الأوضة تاني! لأ!!

- أنا هارتب نقلك في أوضة تانية قريب، ما تقلقش.

بدأ مفعول المهدئ يسري في جسده، لتتراخى عيناه وتهدأ حركته قليلًا، وهو يقول:

- قريِّب يعني إيه؟؟ لأ أنا عايز أتنقل دلوقتي!!

ارتسمت على وجه «داوود» ابتسامة رصينة هادئة، وهو يربت على كتفه مهدئًا، في نفس الوقت الذي أتاه ذلك الصوت الهامس في أذنه مرة أخرى، ليقول:

- دلوقتي ماحدش هيصدقك إنت كمان. أهلًا بيك في العالم بتاعي.

****

حين فتح عينيه تلك المرة، تمنى أحمد يائسًا ألا يكون في نفس الغرفة مع «علي» ثانيةً. لم يكن أثر المهدئ قد زال عنه بالكامل بعد. وحين تمكن بصعوبة من إدارة رأسه لليسار، وجده بالفعل يجلس على فراشه محني الظهر، يتطلع إليه بثباتٍ، وهو يقول:

- صحيت خلاص؟

- إنت عايز مني إيه؟!

قالها أحمد بصعوبةٍ وحلقٍ جافٍّ، ليفاجئه الرد:

- أنا شخصيًا مش عايز منك انت حاجة خالص.

وصمت قليلًا، ثم أضاف:



- بس انت ليك تار مع «إسماعيل».. وهو مُصِرَ يخلّص التار ده.

- «إسماعيل»؟؟!

هتف بها أحمد متسع العينين، فنهض «علي» من مكانه بلا أي تعبير على وجهه، وهو يقول:

- من ٣ سنين، لما «إسماعيل» مات، ماكانش سِنه أكتر من ١٦ سنة. كان وحيد أبوه وأمه. وجه بعد تعب وشقا كتير قوي. وبعد شبه يئس منهم إنهم يخلّفوا أصلًا. جالهم على كَبَر. وكان كل خوفهم، إن هُمَّا اللي يموتوا ويسيبوه وهو صغير. عمرهم ما حطوا في حسبانهم ولا جه في بالهم، إن هو اللي يموت قبلهم. عشان كده لما مات كانوا هيتجننوا، بالذات أمه.

ثم شرد قليلًا، وهو يضيف:

- ومن هنا بدأت المصيبة كلها. لأنهم للأسف قرروا يحضّروا روحه عشان يسمعوه ويتكلموا معاه ولو لدقايق. وللحظ السيء، وقع اختيارهم على «جبريل»، عشان يقوم بالمهمة دي.

عند تلك النقطة في الحديث، بدت لـ أحمد من موضعه على الفراش، نظرة غريبة في عيني «علي»، أشبه بالحزن أو الغضب، وهو يتابع حديثه بصوت متغير، قائلًا:

- «جبريل» كان من عادته مايحضرش جلسات زي دي، إلا ومعاه الخادم بتاعه، خادم من الجان بيتجسد في صورة آدمية، عشان يحضر معاه على هيئة مساعد



بشري عادي.

هنا وجد أحمد نفسه يهتف بخوف:

- وأنا..! أنا إيه علاقتي بكل ده؟!!

- ما هي دي الغلطة اللي ارتكبها «جبريل».

لم يبد على أحمد أنه فهم، ليعود «علي» ويقول:

- اللي حضر كانت روح شخص تاني، شخص له نفس الاسم، واتقتل في نفس الوقت اللي بيتم فيه التحضير.

وازداد الألم والغضب في ملامحه وصوته، وهو يقول:

- والروح دي تلبَست الجني المتجسد في شكل بشر، فبقى جان حي ممسوس ببشر ميت، لا عارف يندمج وسط بقية بني آدم، ولا عارف يرجع يعيش تاني مع قبائل الجان.

واقترب من فراش «أحمد»، وهو يضيف:

- القتيل كان جارهم «إسماعيل»، أبو «خديجة»، اللي انت اغتصبتها وقتلته، عشان رفضك لما اتقدمت لها.

ثم اتسعت عيناه بطريقة مخيفة، وهو ينظر في عيني «أحمد»، هامسًا:

- والجني ده يبقى أنا..

****

شعر أحمد أن ذرات جسده على وشك التفكك من شدة الخوف، وأن برأسه ألمًا وضغطًا شديدًا يكاد يفجره، ليصرخ فجأة قائلًا وكأنما تذكر:

- لأ! لأ أنا ما اغتصبتهاش! ولا قتلته!! ده هو.. هو



الــــ...!!!

قفز «علي» فجأةً ليهبط فوقه باترًا عبارته، والشرر يتطاير من عينيه وهو يقول:

- هو اللي عايزك تموت دلوقتي، ومش هيسيبني إلا أما يخلّص تاره معاك. يا أقتلك بإيدي، يا أوصَّلَك إنك تقتل أنت نفسك بإيدك.

انتفض أحمد في مكانه، وانزلق من فراشه متملصًا من القبضة التي كانت في طريقها للإمساك به وهو يلهث، ويحاول الاندفاع بأقصى سرعةٍ نحوَ الباب صارخًا، ليفاجأ بــ «علي» وقد طار ليسد عليه الطريق، وهو يقول:

- اصرخ زي ما انت عايز. ماحدش هيسمعك.

كاد أحمد يفقد سيطرته على الجزء السفلي من جسده، وهو يُجاهد كي لا يسقِطَ أرضًا، ونبتت دموع الخوف في عينيه، وهو يهتف يائسًا:

- «إسماعيل» ده كان وحش! كان شيطان!! كان عارف أنا و «خديجة» بنحب بعض أدّ إيه، ورغم كده صمم يرفضني عشان يجوزها ابن أخوه. ولما هي وقفت قصاده وصممت عليّا، نزل فيها ضرب وجلد، لحد ما هي اللي فقدت أعصابها و.. و..!!

بتر عبارته فجأةً كأنما ابتلعَ لسانه، أو أجبر نفسه على الصمت، ليهتف به «علي»:

- سكت ليه؟؟

انهمرت دموع أحمد أكثر وهو يقول:



- لأن «خديجة».. «خديجة» هي اللي قتلت أبوها! حدفته بطفاية تقيلة في دماغه و..!!

- إيه؟ هتعمل فيها فاقد الذاكرة تاني؟!!

بانهيار صرخ «أحمد»:

- أنا كنت ناسي كل حاجة فعلًا! عشان كنت عايز أنسى إني سببت للبنت الوحيدة اللي حبيتها في حياتي كلها، كل الألم والقهر والبهدلة دي! لكن أنا مالمستهاش، وماقتلتوش! وماكنتش عايز كل ده يحصل أصلًا!! لدرجة إني تخيلت إنه.. إنه ماحصلش فعلًا!!!

تصلب «علي» في مكانه قليلًا، وانحنى رأسه لأسفل جهة اليسار، كأنه يسمع شيئًا أو يركز في شيءٍ، ثم تحركت شفتاه ليخرج منها صوت مريع يقول:

- كداب!

فهتف «أحمد»:

- «إسماعيل» هو اللي كداب! هو اللي كدب عليك كل الوقت ده، وعذبك معاه كل ده، على تار مش موجود أساسًا غير في دماغه هو. «إسماعيل» عذبنا إحنا الاتنين يا «علي». عذبنا حي وميت!!

تحركت عينا «علي» بسرعة غريبة، وبدا وكأنه يفكر أو يقاوم شيئًا ما، قبل أن يطلق صرخةً عظيمةً شعر أحمد معها أن الغرفة كلها تهتز. وأغمض عينيه وهو يسد أذنيه بكفيه. لكنه حين فتحهما ثانيةً، ندم على ذلك أشدَّ الندم، وتمنى لو أنه لم يفتحهما أبدًا، وهو يرى «علي» أمامه، وقد خرج من ظهرهِ جناحان كبيران، لهما



نفس لون جلده، ويشبهان أجنحة الخفافيش.

وحين ضرب هذان الجناحان الهواء، وأثاث الغرفة الصغيرة، شعَرَ أحمد أنه يوَدُّ اقتلاعَ أذنيه كي لا يسمع صوتهما المخيف، واقتلاع عينيه كذلك، كي لا يرى «علي» وهو يطير نحوه ويقترب منه، ويمسك به بقبضته الباردة المفزعة. تخيَّلَ أنه يصرخ، وتخيل أنه حاول ضرب صدر «علي» ووجهه يائسًا، وكان ذلك آخر ما تخيله وراَه، وهو يغوص في سواد تدريجي كثيف.

****

حين عاد له وعيه تلك المرة ببطءٍ، عاد لأذنيه أولًا، وظلت عيناه مغلقتين قليلًا، أو ربما هو الذي لم يرد فتحهما، وهو ينصت للحوار الذي أتاه في البداية خافتًا، كأنما يأتي من بعيدٍ، أو من وراء حواجز، ثم ما لبث أن ميَّز فيه صوتي رجل وامرأة يتحدثان.

- يعني هو هيبقى كويس دلوقت يا دكتور؟

- أنا غيرت له بعض الأدوية اللي كان فيها مشاكل. وفي الغالب هاغير طريقة العلاج عشان نركز على مقاومة الهلاوس. وربنا يقدم اللي فيه الخير إن شاء الله.

فتح عينيه في تلك اللحظة متطلعًا لوجهي المتحدثين بقلقٍ، ثم دائرًا ببصره في الغرفة كلها بحثًا عن «علي»، لكنه حين دار ببصره لليسار، لم يجده، لم يجد حتى فراشه. الغرفة لم يكن فيها سوى فراشٍ واحدٍ يرقد هو فوقه، وقد بدت أنها غرفةً لشخصٍ واحدٍ



في الأساس، ليهتف:

- هو مشي؟! إنتوا مشيتوه خلاص؟؟

نظر له الرجل الواقف على يمين فراشه، سائلًا باهتمامٍ:

- هو مين؟

- «علي»!

- إنت مفيش حد معاك في الأوضة دي يا «أحمد»، ماكانش فيه حد من الأساس. اللي انت مريت بيه ده كله كان هلاوس، وأوعِدك إنها مش هتضايقك تاني، وإنك مش هتشوف «علي» ده تاني.

فتح فمه ليقول شيئًا ما، فلم يدرِ ما يقول وهو يشعر بحيرةِ بالغةِ. وانتبه في تلك اللحظة للمرأة التي تقف على يسار فراشه، حين انحنت عليه وهي تقول بتعاطفٍ:

- «أحمد» يا حبيبي. سلامتك ألف سلامة.. أنا كنت قلقانة عليك قوي! بس الحمد لله دكتور «سليمان» طمّني

نظر لها هي الأخرى بحيرةِ تائهةِ، لتعود وتقول بحزنٍ:

- إنت مش عارفني ولّا إيه؟ أنا «خديجة»..! «خديجة» مراتك.

- «خديجة»..!!

قالها فجأةً بلهفة وهو ينظر في عينيها، ليطفر الدمع منهما وهي تحتضنه، متمتمة:

- الحمد لله، الحمد لله!



- ماتقلقيش يا مدام. كده نقدر نكمل في العلاج واحنا متفائلين.

قالها الطبيب، لتعتدل «خديجة» مرةً أخرى وهي تمسح دموعها، وتقول:

- أنا متشكرة ليك قوي يا دكتور..

- ده واجبي يا افندم. ومتهيألي نسيب أحمد دلوقت عشان يرتاح. وأنا هابقى أمُرّ عليه بنفسي بعد ساعتين عشان أطّمن عليه.

ألقيا عليه التحية، وودعته «خديجة» بشيء من الحزن، قبل أن يغيبا خارج الغرفة، ويغلقا الباب خلفهما. أما هو، فقد نهض من الفراش سائرًا في الغرفة، متطلعًا لكل ركن فيها، كأنه يتأكد، للمرة الألف، أنه وحده. والكلمات التي قالها الطبيب ترن في أذنه.. هلاوس، هلاوس وانتهت.

كان على وشك أن يتنفس الصعداء ويعود ليسترخي على فراشه، حين التقطت عيناه شيئًا صغيرًا، ملقى في ركن الغرفة. نهض متجهًا له لينحني عليه متأملًا، وقد بدا له أشبه بدائرة داكنة صغيرة، التقطها بإصبعه ليتبين ما بها من بلل، وقربها من عينه وقد بدأ يفطن ماهيّتها مرتجفًا، فتلك الدائرة لم تكن إلا عدسة عين ذات لون داكن يقترب من السواد، لا تزال تحمل رطوبةً.. تؤكد استخدامها من وقت قريب للغاية.

تـمّت

****





وجدوني.. وجدوني ثانية! في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، وهذا الشارع الساكن الخالي شديد الهدوء. لا أعرف كيف، ولا وقت للتفكير في ذلك الآن، لكني أعرف جيدًا أنهم يتبعونني الآن.

شعرت بقشعريرة قوية اهتزَّ لها جسدي كله، وبحبات العرق وهي تنبت ببطءٍ على جبهتي رغم برودة الجو. لكنني رغم ذلك لم أسرِع خطوتي، محاولًا ألا يظهر عليَّ أي توتر خارجي. لا أريدهم أن يعرفوا أنني لاحظتهم. لا أريد للفأس أن تقع في الرأس بهذه السرعة، فلا يصبح أمامي من خيارات سوى الصراخ أو الركض، وكلاهما يائس ولن ينقذني، بل سيعجل بنهايتي على الأرجح. أريد أن أعطي عقلي ولو بضع لحظاتٍ إضافيةٍ ليفكر لي في مَخرَجٍ ما. أما قلبي، فقد كانت سيطرتي عليه شبه معدومة، رغم رغبتي الحارة في إبطاء سرعة دقه ولو قليلًا.

لم أعرف عددهم. ولم أجرؤ على تحريك رأسي نحوَهم كي أعرف. حتى عيناي ضيقت حيِّز تحركهما إلى أقصى حدٍّ. لكني اعتمدت على أذني وإحساسي كي أخمن أنهم أكثر من اثنين، ولتنقبض عضلات معدتي فيما يشبه عقدةً كادت تعيقني عن مواصلة السير. لم أجرؤ كذلك على وضع يدي داخل معطفي كي أصل إلى هاتفي في جيبه الداخلي. وحتى لو وصلت، وحتى لو تمكنت من طلب النجدة، فهل ستأتي في الوقت



المناسب؟ أي وقت مناسب أصلًا والكارثة ستقع في أي لحظة من الآن!

ارتفع صوت خُطواتهم وتسارعَ فجأةً. يبدو أنني استنفدت كل اللحظات المتاحة للتفكير، وأن صبرهم قد نفد أخيرًا، لينتقلوا من مرحلة التتبع المستتر إلى الهجوم المباشر، فلم يعد أمامي إلا أكثر الحلول يأسًا. توقف عقلي تقريبًا عن العمل، وكاد قلبي يتوقف هو الآخر، حين أسلمت ساقي للريح ركضًا، وأنا أكاد أسمع نبضي يرن في أذني بصوتٍ أعلى من وقع أقدامنا جميعًا على الأسفلت.

انحرفت يمينًا قافزًا فوق سور قصير لحديقة أحد المنازل وأنا أريد أن أصرخ، لكن لهاثي كتم صوتي فلم يجاوز صدري، والأرض العشبية تعوق قدمي وتقلل من سرعتي. قفزت من حديقة هذا المنزل إلى ذاك، متخذًا طريقًا متعرجًا ما بين المنازل، آملًا فقط في تأخير لحظة لحاقهم بي، ريثما تهبط معجزةٌ ما، من مكانٍ ما، فتنقذني.

لكن حظي بدا وكأنه يسير في اتجاهِ مُعاكِسٍ تمامًا لما أريد، حين هبطت قدمي فجأةً أثناء ركضي فوق مساحة طينية زلقة، ليختل توازني وأسقط، ولا أكاد أرفع جسدي مستندًا على ركبتي كي أنهض، حتى تأتيني تلك الضربة القوية على مؤخرة رأسي، لأشعر في موضعها بألمٍ عنيفٍ حارقٍ، تبعه سواد تام أمام عيني.

****



ورغم شعوري بعودة الوعي مرةً أخرى لجسدي، بعد مدة لم أتمكن من تحديدها، لم أشعر بوصول أيِّ نوعٍ من الضوء إلى عيني، ولا حتى ذلك النذر اليسير الذي يتسلل من الجفون. حتى أذني لم تلتقط صوتًا قويًا أو مميزًا في البداية. أما ذاكرتي، فقد احتاجت وقتًا هي الأخرى كي تتفهَّمَ عدم إفاقتي في فراشي، وشعوري بوضع جالس غير مريح، كأنني مُجبَرٌ عليه، ولأتذكر ما حدث قبل إغماءتي تلك، وكان سببًا فيها.

وفور استرجاعي لما حدث، وجدت نفسي أحاول النهوض واستكشاف ما حولي، ومن حولي، بعصبية وتوتر بالغين، فقط لأفاجأ بأنني لا أستطيع هذا ولا ذاك. يداي مقيدتان على مسنديْ الكُرسيّ الذي أجلس عليه، والذي يبدو ثقيلًا من صعوبة تحريكه بجسدي، وكذلك قدماي، مُقيدتانِ أيضًا إلى قائميه الأماميين. أما عيناي، فقد شعرت بملمس قماشي خشن يغطيهما، كأنها عُصابةٌ مشدودة عليهما بإحكامٍ، وعريضة فيما يبدو، لأنَّ جزءًا منها يغطي أذني كذلك. حتى فمي، تبينت أنه مغلقٌ ومسدودٌ هو الآخر، بما يشبه شريطًا لاصقًا سميكًا، شديد القوة.

تحوَّلَ توتري إلى خوفٍ حقيقيٍّ مع كل ما أكتشفه من عجزي وتعطيلِ لحواسي، فيما عدا أنفي الذي التقط رائحةً مكتومةً عطنةً، تشي بوجودي داخل مكانٍ مغلقٍ رطبٍ سيء التهوية، بدروم على الأرجح. ولكن.. ماذا أيضًا؟ وماذا بعد؟؟



كان ذلك حين شعرت فجأةً بيد تلمس وجهي، وتزيح جزءًا من العصابة من فوق أذني اليسرى، كي يأتيني من تلك الناحية، صوت بالانجليزية يقول:

- إذًا فقد استيقظت أخيرًا.. مرحى!

****

انتفض جسدي وعقلي يضج بالأسئلة. مَن هذا؟؟ أكان معي طوال الوقت؟! وحده أم معه آخرون؟؟! وكم عددهم؟؟ أردت أن أتكلم، أن أردَّ أو أسأل، لكني تذكرت الشريط اللاصق فوق فمي، وتذكرت أني لا أعرف أصلًا ما يجب أو ما أريد أن أقول، ولا ما يُمكِن أن يؤدّي إليه ما أقوله. غلت الدماء في رأسي من فرط التوتر والتفكير، فعاد موضع الضربة على مؤخرة رأسي يؤلمني بشدةٍ، وكأن أحدهم يلكمني فيه كل ثوانٍ، ليتسبب كل هذا في صداع لا يُطاق. حين عاجلني نفس الصوت مرة أخرى، وهو يقول:

- أتعرف كم هي ممتعة رؤية أحدكم خائفًا هكذا؟!

ضغطت على أسناني داخل فمي المغلق المسدود قهرًا. لا أعرف أي شعور يمزقني أكثر، الخوف مما سيحدث لي؟ مهانة وقوعي في أيديهم، واستمتاعهم بترويعي إلى هذا الحدّ؟ أم سُخرية القدر التي جعلتني أقطع آلاف الأميال هربًا منهم، فقط لأقع في أيديهم هنا، في مهربي؟

- لكن، أتعرف ما هو الأكثر إمتاعًا؟

جاءني الصوت مرةً أخرى، فثقُلت أنفاسي حتى



تحشرجت في صدري، قبل أن أشعر بأنفاسٍ أخرى حارَّةٍ على أذني، والصوت نفسه يهمس فيها:

- إنك لا تعرف كمَّ الويل الذي ستراه على يدي.. أيُّها الإرهابي!

****

إرهابي؟!

لو لم أكُن مُكمَّمًا معصوب العينين هكذا، لاتسعت عيناي وفغر فمي مما سمعت! من هذا الرجل؟؟! وما هذا الذي يقوله بالضبط؟!! حاولت التملُّص وإصدار أي صوت من حلقي اعتراضًا وتنبيهًا، فلم يصدر عنّي إلا أنين متحشرج خافت أشعرني بالمهانة، إلا أنني واصلت محاولتي، والتي يبدو أن مُحدِّثي قد فهمها، لأسمعه يقول بما يشبه التهكم:

- أراك ترغب في قول شيءٍ ما.. هلم إذًا، عبّر عن نفسك!

وشعرت بيده على وجهي تنزع الشريط اللاصق بحركة واحدة سريعة تأوهت لها وأنا أشهق رغمًا عني، وحاولت التقاط أنفاسي اللاهثة، وأنا أهتف بالإنجليزية بدوري، وبصوت متقطع:

- ألست.. ألست من الجماعة؟!

مرت لحظات من الصمت، تمنيت خلالها أن تُزالَ العصابة من على عيني هي الأخرى، لكن هذا لم يحدث، فقط جاءني الصوت مرةً أخرى، متسائِلًا بسخريةٍ خشنةٍ:



- أيُّ جماعة يا ولد؟!

خشيت أن يكون في الأمر كمين ما، فصمت قليلًا، قبل أن أتساءل بخفوتِ حَذِرٍ:

- أليس لجماعتكم أعضاء هنا في «أمريكا»؟ ألم يتم تكليفُهم باقتفاء أثري بسبب أفكاري ومقالاتي؟

- كلا يا صديقي. لست من جماعتك. وجماعتك لن تنقذك منّي.

قالها بشماتةٍ وسخريةٍ أشدّ، جعلتني أهتف:

- لا..! أنت لا تفهَمْ. ليسوا جماعتي، ولستُ إرهابيًّا!

- حقًا؟! غريبة! مع أنّ هويتك تقول العكس.

- هويتي..؟!

- من الطبيعي أن أفتش ثياب متسلل وجدته في حديقة منزلي في هذا الوقت من الليل، أمَا كنت تفعل هذا لو كنت مكاني يا.. «بلال»؟ هل أستطيع أن أناديك باسمك الأول؟ هل أنطقها هكذا بشكلٍ صحيــــــح....

- سيدي، أنا لم أتسلل لحديقتك! لقد حدث سوء فهــــــ...!!

لم أعرف ما ضربني في أنفي، لكنها كانت قبضته على الأرجح. مباغتة بطريقة أجبرتني على بتر عبارتي، وقوية إلى حدّ لم أتمكن معه من كتم شهقتي، أما أسوأ ما فيها على الإطلاق، فقد كان إحساس المهانة، ولم أدرِ إن كان هو، أم صدمة الألم، السبب في الدموع التي شعرت بها تنبت في عيني، من وراء العصابة. لكنه لم يكتف بها، ليلقي المزيد من الملح على جرح كرامتي،



وهو يقول ببرودٍ:

- أولًا، لا تقاطعني، فأنا أكره المقاطعة. وثانيًا، لا تكذب، فأنا أكره الكذب أكثر من المقاطعة بكثيرٍ.

ظللت صامتًا، خجلًا من الاعتراف حتى لنفسي أنني خائفٌ. متى ومن أي اتجاه سوف تأتي الضربة التالية؟ وهل سيقتصر الأمر على الضرب فحسب أم...؟؟

- والآن أخبرني، ما الذي جاء بك إلى حديقتي يا «بلال»؟

شعرت بصهد أنفاسه الحارة يشي باقترابه منّي فأجفلت، وسمعت صوته قريبًا، وهو يقول:

- بل ما الذي جاء بك إلى بلدي؟؟

بضع ثوانٍ مرت. بضع ثوانٍ فقط هي كل ما احتجته كي أبتلع ريقي وأسلك حلقي، ثم أرتب إجابتي في ذهني بشكل منطقي، كي لا تخرج بطريقة، ربما تفسد موقفي أكثر. لكنني ما كدت أفتح فمي، حتى عاجلتني ضربة على جانب وجهي، أعنف من سابقتها و..

- آه، نسيت أن أخبرك، أنا أيضًا أكره التأخر في الرد عليَّ.

****

ربما لم تكن تلك الصفعة على أذني، أقوى فعليًا من اللكمة الأولى في أنفي، لكن تأثيرها كان أشدَّ بكثيرٍ، وكدت أبكي حقًا من المهانة تلك المرة، وأنا أشعر برأسي كله يرتج، بوجهي وهو يتوهج، وأذني اليسرى وهي تصفُر. لكنني كززت على أسناني، وتمالكت نفسي كي لا



أبكي أمام هذا الوغد. لا، لن أبكي أمامه. لن أبكي!

وبنبرةٍ حاولت جعلها باردةً متماسكة، قلت:

- ولمَ لا تطلب لي الشرطة ما دمت تراني متسللًا، وتتركهم هم يسألونني أسئلتك هذه، فتريحني وتريح نفسك؟

- وأفوّت على نفسي لذةَ الانتقام من مسلمٍ؟! أنت لا تتصور كم أكرهكم، ولا أصدق أنه قد أتيحت لي الفرصة أخيرًا في التنفيس عن غضبي نحوكم!

شعرت في صوته برنة غريبة وهو يقولها، رنة أرعبتني، كأنه نمر يزأر متلمظًا في انتظار وجبة دسمة. ولا أدري كيف انفلت لساني لأقول بغِلّ، ما ندمت عليه بعدها بثوانٍ:

- تقصد في التنفيس عن رغباتك السادية الدفينة!

تزامنت صفعته على وجهي مع صرخته الهادرة، وهو يقول:

- تأدّب وأنت تحادثني أيها الهمجي!!

كدت أعلّق ثانيةً على ما يقول ويفعل، وهو ينعتني أنا بالهمجي، إلا أنني صمَتُّ خوفًا هذه المرة للأسف، وربما أقنعت نفسي أنه التعقل لا الخوف، وأنا أبتلع كرامتي، وأحاول تهدئة صوتي الذي خرج متهدجًا رغم ذلك، وأنا أقول:

- أنا أكره الإرهابيين أكثر منك، لأنهم طاردوني مرارًا بالفعل في (مصر)، بلدي، بالتهديدات والوعيد، قبل أن آتي إلى (أمريكا)، بلدك، وربما كانوا سببًا في موافقتي



على منحة الجامعة الدراسية التي أرسلتني إلى هنا من الأساس، لكي أهرب منهم. وهم أيضًا السبب في فراري لحديقتك وأنا أركض هربًا على غير هدى بين المنازل، طلبًا لأية نجدة، بعد أن شعرت بهم يتبعونني.

مرت فترة من الصمت، ارتجف جسدي فيها رغمًا عنه. هل اقتنع أخيرًا؟ هل سيحل وثاقي أو يدعني حتى أرى ما هو أمامي؟ أم..؟؟

فقط لأفاجأ بالضربة الثالثة، الآتية بغتة من الظلام كسابقتيها، والتي شممت بعدها رائحة دماء، وشعرت بسائلٍ ساخنٍ ينحدر من فتحة أنفي ببطءٍ.

- كذبت ثانية، فلم يكن أحد يتبعك حين وجدتك.

قالها ببرودٍ وصمتٍ بعدها تمامًا، صمت مخيف لا أفهمه، هل ينتظر منّي تفسيرًا أم تعديلًا لكلامي؟ هل يستعد لضربة أخرى؟ من أين ستأتي؟ متى ستأتي؟؟ هل أقول شيئًا أم أصمت؟؟ وهل سيكتفي هو بالضرب أم أنه يحتفظ لي بما هو أسوأ؟!

- الأرجح أنهم فروا حين رأوك، فهم يريدونني وحدي، ولا يريدون لفت النظر لهم بكل تأكيدٍ.

جاءت الضربة الرابعة ليمتلئ فمي بالدماء فأضطر لبصقها، وأنا أتأوه هاتفًا:

- أو.. ربما خُيِّلَ إلي أن أحدهم يتبعني من كثرة ما تُبعت قبل ذلك، وتلقيت من تهديداتٍ!

ضربني مرةً أخرى، وهو يقول بنفس البرود المستفز:

- لا أصدقك.



لم أتمالك أعصابي تلك المرة، لأصرخ رغم آلامي:

- ما الذي لا تصدقني فيه الآن؟! أقول لك ربما خُيِّلَ لي! ما الذي لا يمكن تصديقه في عبارة كهذه؟!!

هوَت صفعته على وجهي بقوة، حتى شعرت أنني أصبت بصمم دائم، مع أنني سمعته رغم ذلك، وهو يقول:

- لا ترفع صوتك.

لكني لم أبالِ بما قال وأنا أشعر أنني موشِك على الجنون، لأصرخ بأعلى صوتي:

- بل سأرفعه! سأرفعه لأخبرك كم أنت غبي!! أيها السادي المختل، أنا لا يمكن أن أكون إرهابيًا كما تظن لأنني لست حتى مسلمًا أصلًا!! أنا ملحدٌ!

****

شعرت بقبضته تلك المرة وهي تمسك بتلابيبي وتجذبني للأمام بقوة، حتى شعرت أن المقعد سوف ينقلب بي رغم ثقله، أو أنني سأسقط عنه، لولا تقييدي فيه. لكن ضربته لم تأتِ بعدها على الفور كما ظننت، أو ربما تمنيت، كي لا أظل في هذه الحال المعلّقة من انتظارها الأمرّ من وقوعها، فقط شعرت بأنفاسه اللاهثة الساخنة قريبة جدًا من وجهي، وهو يفح من بين أسنانه، قائلًا:

- بل تصرخ أملًا في جذب انتباه رفاقك في جماعتكم الإرهابية، أليس كذلك؟!

ورغم ضعف موقفي، كززت على أسناني أنا الآخر،



وأنا أقول بغيظٍ:

- ألم تَقُلْ بنفسك أنك لم تجد أحدًا يتبعني؟!

- وما أدراني بألاعيبكم القذرة؟! ألم تتمكنوا رغم بدائيتكم وغبائكم من التخطيط لـ ١١ سبتمبر؟!

- أما زال ذلك هو عذركم ضد اضطهاد أيِّ عربيٍّ أو مسلمٍ حتى الآن حقًّا؟! تلومون عرقًا بأكمله بسبب حادث واحد؟! حتى من وُلِدوا بعده، أو كانوا أطفالًا وقت حدوثه؟! وتنعتوننا نحن بالغباء؟!! لقد كنتُ مراهقًا في الثانوية في ٢٠٠١ أيها المجنون!!

كانت قوة ضربته تلك المرة كافية كي يميل المقعد على جانبه بالفعل، لأجد نفسي أعافر بائسًا كي لا أسقط معه، ورغم ذلك سقطت به في النهاية على جانبي مُطلقًا صرخة قصيرة، وأنا أشعر أن عظامي كلها ترتج بألمٍ عنيفٍ، وأسمعه يقول بظفرٍ متشفٍّ:

- جميل منك أن كشفت كذبة إلحادك المزعوم بنفسك، واعترفت بانتمائك للمسلمين!

- أنا مسلم على.. الورق فقط! وسأظل عربيًا، وُلِدَ في عائلة مسلمة وإن.. وإن لم أكن مسلمًا أيها المخبول! ألا.. تفهم الفرق بين الاثنين؟!

وددت لو لم تخرج كلماتي مبعثرة متكسرة، وأنا أكاد أبكي قهرًا وألمًا، محاولًا إبعاد وجهي عن رطوبة الأرض القذرة بلا جدوى، شاعرًا بأنني ذبيحةٌ لا حول لها ولا قوة، تنتظر أن يُجهز عليها جزّارها ليأتي على ما بقي منها. وشعرت بخطواته تقترب مني، لأظنه سيعيد



المقعد لوضعه الأصلي، فقط لأفاجأ بركلةٍ عنيفةٍ في بطني، أخرجت الهواء من صدري على هيئة شهقةٍ حادَّةٍ خرجت من حلقي، وأنا أسمعه بصعوبة، يقول:

- أخبرتك من قبل أن تتأدب في الحديث مع أسيادك.

لم أرد تلك المرة، لم أتمكن حتى من التفكير في ردّ، وهو يتبع ركلته الأولى بسلسلة متعاقبة من الركلات في مواضع شتى من جسدي، جعلتني أطلق أعلى صرخات أطلقتها في حياتي، وأنا أسمعه يقول ما بين الركلة وأختها:

- هلم اصرخ.. اصرخ كما تشاء لأشنف أذني.. بصرخاتك، علّها.. علّها تغطي على صرخات ضحاياكم التي أسمعها.. بداخلي كل يوم.

وحين بدا أخيرًا أنه تعب من ركلي، توقف لاهثًا لينحني عليّ وأنا أكاد أفقد وعيي من الألم، ليقول:

- .. ولا تنتظر.. أن يأتي أحدهم لإنقاذك، فهذا البدروم.. معزول صوتيًا عن كل ما حوله.

كان ذلك آخر ما سمعته، وأنا أشعر بكلماته تختلط ببعضها البعض، ووعيي يذوب عن رأسي رغمًا عني.

****

وحين شعرت بصدمة برودة مفاجئة، وما يشبه موجًا عنيفًا يسقط فوق رأسي، عاد إلي وعيي وأنا أكاد أختنق من فرط الشهيق والسعال، لأتبيَّن أنني في وضعٍ مُعتدلٍ، وأكاد أتجمد من المياه الباردة التي غُمرت بها كي أصحو غيرَ فاهمٍ بعد لما يحدث، ولا أعرف حتى



أين أنا.

- والآن، ماذا كنا نقول؟

جاءتني العبارة لأتذكَّرَ أنني ما زلت محتجزًا في بدروم هذا المجنون، وأنه لا فكاكَ مما أنا فيه. ارتجفت بعنفٍ، بردًا وخوفًا وقهرًا، وأنا أشعر أنني أكاد أفقد السيطرة على كل جزءٍ في جسدي، على مثانتي وغددي الدمعية بالأخص، وراودني خاطر غريب أخجلني، في أن أتركهم يفعلون ما يحلو لهم، مستغلًا بللي العام. ورغم سيطرتي على مثانتي بإرادة حديدية رغم برودة جسدي العنيفة، كي لا أفقد آخر رمق في كرامتي وإنسانيتي أمام نفسي، إلا أنني شعرت بدموعي وهي تنسل من أسفل عصابة عيني على وجهي، مع ما يتساقط من مياه على كامل جسدي، لأخفض رأسي محاولًا إخفاءها رغم ذلك، وأنا أقول ببطءٍ وخفوت:

- أنا لم.. لم أعد أعرف أين أذهب وماذا أفعل.. وأنا أشعر أنني مضطهد ومطارد أينما ذهبت.. منكم لأنكم تكرهون انتمائي لأبناء جلدتي عرقيًا.. ومن أبناء جلدتي لأنهم يكرهون ما يظنونه انتماءً فكريًا لـــ...

لم أتمكن من إتمام عبارتي، ليؤلمني ما فيها من انكسارٍ، جعلني أختنق بعبراتي أكثر، وأخفض رأسي أكثر وأكثر، خشية انكشاف أمر بكائي الذي صار حقيقةً واقعةً الآن، رغم مقاومتي العارمة له. ومرت فترة من الصمت، جعلتني أتساءل فزعًا عما سيحدث، حين سمعته يقول:



- يا للأسف..

أعطتني كلمته شذرة من أملٍ، احتقرت نفسي على التمسك بها، وأنا أشعر أن نجاتي لن تكون إلا بالتذلل والمسكنة، إلا أن حتى تلك الشذرة تحطمت تمامًا، وهو يكمل ساخرًا:

- لقد تشوّه وجهك الوسيم تمامًا يا «بلال».. أما كان من الأفضل لك أن تحتفظ به سليمًا في بلدك؟

- ولماذا لم تبقَ أنت كذلك في بلدك؟

سمعته يطلق صوتًا مستنكرًا، قبل أن يهتف بجِدَّةٍ:

- أنا في بلدي يا ولد! عما تتحدث؟!

- أتحدث عن جذورك. ألك جذور أم إنك نَبْت شيطاني ظهر فجأة؟

- أتحسبوننا مثلكم لا نعرف لنا أصلًا ؟! طبعًا لي جذورٌ من بريطانيا التي احتلَّت بلدك.

- جميل. إذًا فجدك هو الآخر مهاجر دخيل على «أمريكا» مثلي. لماذا لا تستنكر فعلته هو كذلك؟

ورغم أنني لا أرى وجهَهُ، إلا أنني كدت أشعر به يتميز غيظًا، لدرجة أنه نسيَ أن يضربني، أو تأخر قليلًا ربما، لأنتهز أنا الفرصة، مكملًا:

- كلكم مهاجرون ومع ذلك تكرهون المهاجرين. (أمريكا) أصلًا عبارة عن مهاجرين، ولولاهم لما وُجِدَت من الأساس.

- اخرس يا عربي!

زامن عبارته مع صفعة قوية على وجهي، زادتني



عنادًا، رغم الدماء الجديدة التي شعرت بها تسيل من أنفي، لأكمل:

- كلكم تعرفون جذوركم بدقة، في حين لا أستطيع أن أحدِّد أنا جذوري بنفس الدقة، ولا يستطيع أي مصري، أتعرف لماذا؟

- لأنكم جميعًا نتاج نكاح البعير والماعز.

- بل لأن لنا جذورًا عميقةً عريقة ضاربة في القدم، يصعب تتبعها لأنها تصل لما قبل تاريخ إنشاء بلدك كلها، بل لما قبل كتابة التاريخ نفسه.

شعرت من لهاثه وحركته أنه يبحث عن ردّ، والذي لم يكن سوى سيلٍ من اللكمات التي وجهها لكل جزءٍ من جسدي ووجهي، وأنا أهتف فيما بينها محاولًا التماسك:

- أجل اضربني.. اضربني لأنك تعلم أنني.. أنني على حقٍّ. لأنك لا تعرف.. كيف تَرُدَ.. وتعرف أننا أسيادكم مهما.. أسيادكم مهما ادعيتم العكس!!

واصل لكماته وهو يصرخ في هياجٍ:

- سأقتلك! أقسم أنني سأقتلك أيها الإرهابي!!

أفرغت ألمي وحنقي وأنا أصرخ بدوري:

- افعلها.. افعلها وأثبت لنفسك أنك أنت الإرهابي!

هنا توقفت لكماته لأسمع صوتًا معدنيًا قويًا جمَّدَ الدم في عروقي، وأنا أشعر به قريبًا وأخمِّن ما هو، حتى تأكدت حين شعرت بشيءٍ باردٍ يلتصق بمنتصف جبهتي، تزامن مع صوته الأكثر برودة، وهو يقول:

- ادع أنت ربك كي ينقذك مما أنت فيه.



- لن يسمعني لأنه غيرُ موجودٍ.

مرت فترة من الصمت والثبات، توقعت خلال كل ثانية منها أن تنطلق الرصاصة وينتهي كل شيء، ولم أدرِ إن كان ذلك الشعور يُخيفني حقًا، أم يُريحني بشكلٍ ما، لكنني بدلًا من ذلك، شعرت بابتعاد الفوهة عن جبهتي، والرجل يقول بما يشبه الدهشة:

- أنت.. لست مسلمًا حقًا!

- هذا ما أحاول إخبارك به من البداية!

قلتها بمرارة وأنا أبصق الدماء المتجمعة في فمي، في حين أكمل هو، وأنا أشعر بخطواته تبتعد به وهو يروح ويجيء، قائلًا فيما يشبه الحيرة:

- لقد خدمت فترة ليست بالقصيرة في (العراق)، رأيت الهول أثناءها، لكني لم أرَ فيها مسلمًا لا يذكر الله أو يستغيث به في لحظاته الأخيرة.

خفضت رأسي وأنا أشعر به يتلطم في بحرٍ من المشاعر، كادت الدموع تطفر من عيني بسببها ثانية، لا أعرف هل أبكي فرحًا لأنه صدقني وسيفرج عني أخيرًا، أم قهرًا لأنني أنتظر إفراجَه هذا ذليلًا هكذا. وحين شعرت باقتراب خطواته منِّي ثانيةً، حاولت مداراة مشاعري كي لا تفضحني وهو يطلق سراحي، لكنه، لصدمتي وذهولي، لم يفعل، لأشعر بالفوهة الباردة تلتصق بجبهتي ثانية، وأسمع صوته وهو يقول:

- أنا آسف يا «بلال».

****



حين فتحت عيني ثانية، لم أصدق أني أفتحهما حقًا، وظللت فترة مقتنعًا أنني ميت حتى بعد فتحهما، خاصة مع الضوء الذي أبهر عيني في البداية. لم يردني إلى أرض الواقع إلا الآلام المنتشرة في كامل جسدي، خاصةً رأسي، واتضاح معالم الرؤية أمامي على ضوء النهار الوليد الذي لم يزَل رماديًا بعض الشيء، لأتبين أنني في مكانٍ ما وسط المدينة، مستلقٍ في حارة ضيقة بين مبنيين قديمين مرتفعين، أستند بظهري على حائط أحدهما، وعلى مقربة مني يرقد متشرد نائم، قذر الأطراف ممزق الملابس، يفترش قِطَعًا من الورق المقوى اتقاء لبرد الصباح ورطوبة الأسفلت، التي تصلني أنا كاملةً، لأرتجف ألما وبردًا، وأنا أحاول النهوض بصعوبة.

وحين ارتج رأسي إثر الحركة بألمٍ عنيفٍ، تحسست الكدمة على مؤخرتي متذكرًا، تلك الضربة التي تلقيتها عليه، بكعب المسدس على الأرجح، في البدروم قبل أن أفقد الوعي، ثم أستردِه جزئيًا وأعودُ لأفقده، في مكانٍ مظلمٍ مغلَقٍ شديدِ الضيق، يكاد يحتوي جسدي بصعوبةٍ، ويترجرج بي كأنه مركبةٌ ما، لأفطن الآن أن ذلك لم يكن إلا حقيبة سيارة ذلك الرجل على الأرجح، وأنه قد أطلقَ سراحي ولم يقتلني، بعد أن نقلني بعيدًا عن بيته بأميالٍ طبعًا، من ضواحي المدينة حتى وسطها.

وحين تمكنت أخيرًا بشكلٍ ما، من الوقوف على قدمي المرتجفتين، ومستندًا لجدار ذلك المبنى، سرت



ببطءٍ في الحارة الضيقة حتى وصلت لنهايتها، لأجد نفسي في شارعٍ رئيسيٍّ، حاولت تحديده بعقلي الذي لا يزال في حالٍ بائسةٍ من الصدمة والبلبلة. وفجأةً، وجدت نفسي أسقط على ركبتي ثانية، ووجدت دموعًا ساخنةً تهطل من عيني، لم أشعر بها إلا حين لامست خدي بحرارتها. رفعت عيني نحو البنايات الضخمة التي أشعرتني أنني صغيرٌ للغاية، ومنها نحو السماء التي أشعرتني أنني أصغر وأصغر، لأدخل فجأةً في نوبة من البكاء الهيستيري، كأنني طفلٌ تائهٌ، وشفتاي تتحركان وأنا لا زلت أتطلع للسماء متمتمًا:

- أنا.. أنا آسف.. كنت مضطر أتظاهر إني.. مش مؤمن بيك عشان.. عشان كنت خايف.. كنت خايف قوي يارب.. سامحني والنبي يا رب! والنبي تسامحني!!

تمّت

****



الطرف الشبح

لمم ألمَ بي، فلما آلمني

تأملت ألمي من بعيد

وإذ به يتأملني

****

تعلقت عيناه المتسعتان بالشاشة أمامه وهو يراقب ما يحدث عليها في دهشة تحولت تدريجيًا إلى ذهولٍ مفزوعٍ، جعل فمه يفغر وحلقه يجف، وجسده كله يتحول إلى ما يشبه تمثالًا باردًا خائفًا. لكن الغريب في الموضوع أن الفيلم المعروض في التليفيزيون أمامه لم يكن مرعبًا في حدّ ذاته، بالعكس، كان دراما اجتماعية عادية ليس فيها ما يخيف، سوى أن كل الأبطال بدوا وكأنهم يتحدثون عنه، بطريقةٍ حسبها في البداية براعة من محاكاة الخيال للواقع، حتى بدأ أولئك الأبطال يتحدثون إليه، لا عنه فقط، ينظرون له مباشرةً، في عينيه، يردّون على ما يدور في عقله، ويتفاعلون بدِقّةٍ مُرعِبةٍ مع كل حركةٍ أو صوتٍ يخرج منه، كأنهم يرونه كما يراهم بالضبط.

****

«٢٠١٧»

يرجع «عبد العزيز» من عمله في الثامنة مساءً كلّ



يومٍ. عمل روتيني وحياة روتينية، لكنها منظمةٌ. فقد تعوَّدَ مذ كان صغيرًا على النظام الذي علَّمه إياه أبوه، رحمة الله عليه. يرجع إلى شقته الكبيرة التي يقطن بها وحده، وقد تفرقت السبل بكل فردٍ من أفراد أسرته الكبيرة، بين مَن سافر أو هاجر أو توفاهُ الله. يرجع إلى روتينيه اليومي المحفوظ ليسير في شقته كما يسير في عمله، كآلةٍ تغذّت بمعلوماتٍ محدَّدةٍ، أو إنسان آليّ لا يكاد يحيد عن مسار مرسوم بدقة. يبدِّل ثيابه ويصلي ثم يذهب للمطبخ لإعداد عشائه المكوّن دائمًا من الفول أو البيض، وهو يستمع إلى قائمة أغانيه التي لا تتغير، المسجلة على (الساوند كلاود) على هاتفه المحمول. وما إن ينتهي حتى يخرج بالطعام للصالة فيوقف الأغاني ويشعل التلفاز ويجلس أمامه يأكل. ينتهي كل ذلك دومًا قبل العاشرة بقليلٍ، وهو يعيد الأطباق للمطبخ ثانيةً ليغسلها، ثم يتأكد من إغلاق التلفاز وكل أجهزة البيت ومصابيحه، ويذهب أخيرًا للنوم في ظلامٍ دامسٍ لا يرتاح إلا فيه.

لكنهم في ذلك اليوم، نظرًا لأشياء تتعلَّق بالعمل، أعطوه وباقي العاملين في الشركة نصف يومٍ فقط، ليجد نفسه يدلف إلى شقته في الخامسة بدلاً من الثامنة التي تعود عليها. وقد تخيل «عبد العزيز» أن ذاك شيئًا قد يسعده، أو يريحه مثلًا، لكنه وجد نفسه لا يحس بالراحة، وكأنه يحب روتينه ونظامه اليومي أكثر مما يحب راحته نفسها، أو ربما كان عدم الراحة ذاك له



سبب آخر؟

حتى إنه عندما دخل شقته، وخيوط النهار الأخيرة تودع السماء متخللة خصاص نوافذها التي يحكم غلقها دائمًا في غيابه، بإضاءة أرجوانية خافتةٍ، شعرَ أنه لا يعرف غرفها وحوائطها التي اعتاد عليها كل يوم. حتى إنه حدّث نفسه بكسر ما تبقى من روتينه اليومي، طالما أنه كُسِرَ من البداية، ليجد نفسه يلقي بجسمه المتعب على الأريكة المواجِهَة للتلفاز ويشعله، ناظرًا خلاله.. لا إليه، ونَفْسُه تُحدّثه ثانيةً بأن يطلب الليلة طعامًا جاهزًا، وكأنه سأمَ معشوقيه، الفول والبيض، فجأةً. شعر بحكّاكٍ في رقبته وسائر أجزاء جسمه ذكّرَه بما كان من عفار ذاك اليوم بطولِهِ، فشعر برغبةٍ عارمةٍ في التحمُّم، ونهض ونفسُه تُحدّثُه للمرة الثالثة اليوم، بترك التلفاز مشتعلًا ليسليه حتى ينتهي من طلب الطعام والاغتسال، لكنه أوقف نفسه بضحكة قصيرة وهو يقول لها إن هذا كثير، كفى خرقًا لقوانينه اليومية، فهذا سيصيبه بالجنون، فأطفأ التلفاز وطلب الطعام، واتجه للحمَّام من فوره.

انتهى «عبد العزيز» من حمَّامه بعد عشر دقائق بالضبط. ارتدى ثيابه ووقف أمام المرآة الصغيرة المعلَّقة فوق الحوض يُمشِّط شعره الذي يقطر منه الماء، وقد وارب باب الحمَّام قليلًا كي لا يفوته قرع جرس باب الشقة إذا ما جاء عامل التوصيل بطعامه. كان يتأمل وجهه في المرآة، ويتساءل ما إذا كانت ذَقنُه تحتاج



لحلاقة وهو يرى أن بعض الشعيرات الخشنة قد نمَت عليها قليلًا، حين أتاه الصوت. حسبه في البداية قادمًا من الخارج من خلال النافذة التي فتحها كي يهوِّي الحمام قليلًا، ثم فطن أنه قد يكون جرس الباب، ليخرج من الحمام متعجبًا، لأن هذا ليس صوت جرس بابه، فهل أصابه عطبٌ ما؟ هل يضغط عامل التوصيل عليه بطريقة غريبة تجعله يصدر هذا الصوت العجيب؟ هل بُعد الحمام عن باب الشقة بسبب اتساعها جعله يصله بهذا الشكل؟ لكنها ليست المرة الأولى التي يسمع فيها الجرس من هنا.

سار بضع خطوات في الردهة القصيرة المفضية إلى الصالة، لتتسمر قدماه هناك، وقد اقترب من مصدر الصوت ليتبينه بشكلٍ أوضحَ.. هذا الصوت قادمٌ من التلفازِ، لا شكَّ في هذا الآن، ولكن، ألم يغلقه بنفسِه قبل الدخول للحمّام؟! أم إنه نسي أن يفعل دون أن ينتبه؟! لكنه لم يعهد أيًا من ذاكرته أو تركيزه بهذا الضعف أبدًا، فما الذي حدثَ بالضبط؟!!

أكملَ المسير وهو يزدرِدُ لعابه بصعوبةٍ، مُحاوِلًا ألّا يصدر خُفُّه صوتًا قويًا على الأرض، وشاعرًا ببقايا الماءِ على جسده تكاد تتطاير من شدة حرارة الترقب والقلق بداخله. وحين وصل أخيرًا لنقطة التقاء الردهة مع الصالة الواسعة، لم يرغب عقله في تصديق ما يراهُ، حين رأى التلفاز مفتوحًا بالفعل، وحين رأى شخصًا يجلس على الأريكة أمامه يتابعه بهدوءٍ شديدٍ.



****

توقف (عزت) عن الكتابة عند هذه النقطة في ملف (الوورد) المفتوح أمامه على جهازه (اللابتوب) الأسود الصغير، ليطالع ما كتبه منذ قليلٍ، والذي بدا له كمطلَع قِصّةٍ مُخيفةٍ، أو عجيبةٍ، اختار لها بطلًا باسمِ قريبٍ من اسمه، (عبد العزيز)، وكأنه يضع نفسه داخل قصته تلك، التي لا يعرف ما ألهمه بها، أو دفعه حتى لكتابتها، وهو الذي لم يفكر في كتابة أي شيء في حياته من قبل، ولا حتى مذكراته أو خواطره.

عاد لبداية الملف وجرى على ما كتبه ثانيةً بعينيه وكأنه يراجعه، أو يرغب في الشعور بالرضا عن نَفْسِه وهو يرى ما أنتجه، ليرتسم ما يشبه الابتسامة على وجهه القمحي الوسيم، ابتسامة متردِّدة بدت وكأنها ترتعش دهشةً كلما قرأ سطرًا إضافيًا، دهشة من قدرته على الكتابة بهذا التمكُّن، وهو الذي لم يكتب سطرًا أدبيًا في حياته من قبل. شعر بزهوٍ أعطاهُ دفعةً لمعاودة الكتابة من جديدٍ، لكن أصابعه كانت تتسمَّر على لوحة المفاتيح كلما حاولَ، ليجبرها على النقر عليها ثانيةً، فيجد أن ما كتبه لا يعجبه، فيعود ويمسحه ليبدأ من جديدٍ، وهكذا دواليك. حتى قرَّرَ أخيرًا أن يتوقف وهو يشعر بعدم جدوى ما يفعله.

خامَرَه شعورٌ غريبٌ حولَ عدمِ قدرته على استكمال ما بدأه. هل انقطع إلهامه عند هذا الحدِّ فجأةً؟ لكن ما السبب؟ لن يجد إجابةً لأنه لا يعرف ما الذي أتى بإلهامه



أصلًا، كي يعرف ما أوقفه. حانت منه التفاتة نحو أريكته التي أدخلها في قصته، فهو لم يضع نفسه فقط داخل القصة، بل وضع شقته كذلك. وهذه الأريكة هي التي رأى ذلك الشخص الغريب يجلس عليها في القصة. شخص يكاد يراه ماثلًا بوضوحٍ أمام عينيه، من شِدّة ما ارتسم في خيالِه بتفاصيله كاملة، فما الذي يمنعه من الكتابة الآن، ليصف ذلك الشخص على الأقل؟ عاد ليسأل نفسه. أهو خائفٌ مما كتبَه؟ خائفٌ من إمكانية تحقُّقه مثلًا؟ من ظهور ذلك الرجل أمامه فجأةً؟ حقًا؟!

بدا له كل هذا طفوليًا إلى حدّ كبيرٍ، إلى حدّ أخجله من نفسه، وجعله يُغلق الجهازَ كلَّه، وهو يطلق ضحكة عصبية حاول جعلها عالية لا مبالية، وكأنه يطمئن بها نفسه. حمل الجهاز تحت إبطه متجهًا به إلى غرفة النوم، ومحادثًا نفسه بأن إلهامه قد توقف عند هذا الحد، وأنه لا بأس في ذلك. وحين أنهى طقوسَه الليلية، واندسّ في فراشه لينام، كانت صورة الرجل الجالسِ على الأريكة لا تزالُ ماثلةً بوضوحٍ في رأسه، بكل تفاصيلها.

****

«٢٠١٧»

حين فتح «يوسف» عينيه المحمرتين بصعوبة، لم يشعر أنه غادر عالم الأحلام بعد، ليقف على تلك الأرض المهتزة ما بين اليقظة والسبات. وبدا وجهه الأبيض



محمرًا من أثرِ النوم، وهو يحك لحيته الخفيفة المهذبة، مديرًا جسده في تأفُّفٍ نحو الكومود المجاور لفراشه، ليلتقط هاتفه المحمولَ من عليه، بيدٍ لم تتماسك عضلاتها وأعصابها بعد، كذلك من أثر النوم، ليسقطه مرتين، قبل أن يتمكن أخيرًا من إحكام قبضته حوله، وهو يلعن تلك الهواتف الحديثة التي يشعر دائمًا أن صانعيها تعمَّدوا تصميمَها بحيث تسقط من كفِّك أكثر مما تبقى فيه. أجبر نفسه على توسيع فتحتي عينيه أكثر، وهو يفتح الشاشة بإصبعه، ويبحث عما أصدر الصوت الذي أيقظه. اتصال؟ رسالة نصية؟ بريد وارد؟

وصل أخيرًا لضالته، والتي لم تكن سوى رسالة جديدة على تطبيق (الواتس اب)، من رقمٍ غير مسجل لديه، أثار فضوله، ليمسح وجهه في محاولةٍ للإفاقة أكثر، وهو يتطلع للرقم، محاولًا التعرف عليه أو تذكره، بلا جدوى، ففتح ما وردَ منه، ليجدها رسالة صوتيه، ترجح لديه أنها لم تصله إلا عن طريق الخطأ، قبل أن يضغط عليها ليسمعها:

..(أصوات مختلطة في مكانٍ يبدو مُزدَحِمًا).. (صوث أنثويٌ يقول بدلالٍ ضاحكٍ): لا لا بس، بس عيب كده، أنا ست متجوزة! والله لأندهلك جوزي.. (ضحكة أنثوية ماجنة).. يوسف! يوسف، تعالى الحقني!!.. (ضحكات مختلطة)...

اتسعت عيناه وهو يهب جالسًا، وقد ميَّز الصوت الأنثوي في الرسالة، والذي لم يكن سوى صوت «آسيا»،



زوجته.

«يوسف».. «يوسف»!!

أفاق «يوسف» من شروده فجأةً، كأنما كان في سباتٍ عميقٍ، ليجد نفسه على مكتبه، يحدق في شاشة الكمبيوتر أمامه، وزميله في العمل يناديه بنفاد صبرٍ، منتشلًا عقله من تذكر ما حدث في الليلة الماضية، ليرفع عينيه وهو ما يزال شاردًا نحو زميله، الذي عاد يقول:

- إيه يا عم إنت، بانادي عليك بقى لي ساعة! إنت نمت وانت مفتح ولّا إيه؟!

- .. هه؟؟

- هه؟! اللي واخد عقلك يا حبيبي!

قالها زميله ضاحكًا، ليعقد «يوسف» حاجبيه في ضيقٍ، وهو يقول:

- بتنادي عليّ ليه؟ عايز إيه؟؟

- ومالك قرفان منّي قوي كده! أنا الحق علي يا عم، كنت باسألك هتاكل إيه؟

- .. أي حاجة

- وعايزها بالكاتشب ولّا بالمسطردة؟

- هي إيه دي؟؟

- الـــــ أي حاجة..

زفر «يوسف» بنفاد صبر، وهو يقول بعصبية بالغة:

- اطلب لي زي ما هتطلب لنفسك يا أخي، ولّا زي طلبي بتاع امبارح، ولّا أقول لك.. أنا مش عايز آكل



أصلًا!

قالها وهب من مقعده دافعًا به إلى الخلف بعنف، ليندفع خارجًا من الغرفة كلها، وزميله يتابعه بعينيه بدهشة، متسائلًا:

- ماله ده؟؟!

سار «يوسف» في ممرات الشركة التي يعمل بها بخطى واسعةٍ سريعةٍ، ووجهٍ مقطب مطرق نحو الأرض، وكأنه يهرب من أعين من حوله، أو احتمالية إلقاء أحدِهم أيّ كلمة أو حتى سلام مقتضب عليه، حتى وصل أخيرًا لتلك النافذة التي يُحِب الوقوف عندها كلما أراد التدخين أو الانفراد بنفسه قليلًا، في فترة راحته. وكعادته، أخرجَ علبة سجائره من جيبه وفتحها ليخرج منها واحدةً دسَّها بين شفتيه، بذهنٍ شاردٍ هذه المرة. وقف في مكانه متصلبًا لبضع دقائق، بدا خلالها كتمثالٍ مَرمريّ طويلٍ مهمومٍ، شديد التناسق والوسامة، يكاد لا يتحرك في جسده شيءٌ، سوى يده التي ترفع السيجارة بين آنٍ وآخر بآليّةٍ إلى شفتيه، ليسحب منها أنفاسًا طويلةً، يتركها تخرج من أنفه كزفراتِ تَنفُّسِه العادي، كأنه لا يشعر، ولا يعبأ بها، على الإطلاق. مدّ يده إلى جيبه الآخر مُخرِجًا هاتِفَه المحمول، وللمرة العاشرة هذا اليوم، يفتحه ليقلب في كل محتوياته، بحثًا عن تلك الرسالة الصوتية التي وصلته ليلة أمس، وكما في كل المرات التسع السابقة، لا يجد لها أي أثر على الإطلاق.

****

«٢٠١٠»

- بس أنا ماختنتكش! والله ما خُنتك!!

- كدابة. الناس كلها عارفة قصتكم

- قصة إيه؟!

- قصتك أنتِ والواد الحليوة بتاعِك.

- إنت عمرك شفتني معاه؟!!

- ده دفاعك عن نفسك؟ ما دام أنا ماشُفتش يبقى ماحصلش؟!

- أنا ماحدش شاف......

- لأ شافوكي كتير وقالوا لي، بس أنتِ تمام طبعًا، لأني فعلًا ماشُفتكوش، ولا شُفته هو أصلًا، ولا عايز بصراحة..

- والله ما حصل بيننا حاجة! والله!!

- أنصحِك ماتحلفيش. وأنصحك كمان تروحي له. هو بيحبك وانتي بتحبيه. والكل بيقول إنكم لايقين على بعض أوي. أتمنى من كل قلبي بجد، إنه يديكي اللي ماعرِفتش أنا أديهولك.

****

«٢٠١٧»

أرخى «عزت» يده على مقود سيارته الفاخرة، وعقله المنهَك بعد العمل يجاهد كي لا يشرد في رحلة عودته إلى المنزل. انتفض فجأةً من شروده وهو يضغط المكابح في آخر لحظةٍ قبل إشارة حمراء، كاد يكسرها



لولا ستر الله، ليؤنب نفسه بشدة على ذلك الشرود، ولكن ما يلبث أن يعود إليه ثانيةً، مُستغِلًا دقائق توقفه الإجباري القليلة، وسارحًا ببصره في عابري الطريق أمامه، لتتسع عينه قليلًا، وهو يتابع أحدهم باهتمامٍ مُندهشٍ.

لم يرَ من هيئته الكثير بسبب سرعة سَيرِه، والزاوية الجانبية التي يراه منها، لكن ما رآه كان كافيًا كي يعقد حاجبيه في حيرةٍ، ويكاد يخلع عنقه الذي لواه بعنفٍ كي يتابع ذلك العابر بعينيه، كأنه يريد أن يتبين شيئًا أو يتأكد من شيء ما، لينتفض من أفكاره ثانية، متيقظًا فجأة على أبواق السيارات الواقفة خلفه، وقد نفدَ صبر قائديها حين فُتحت الإشارة دون أن يتحرك من مكانه، الأمر الذي جعل بعضهم يخرج عن حارة الشارع كلها، كاسرًا على الحارة التالية، ومطلقًا لسانه في سباب «عزت»، الذي بدا شاردًا وكأنه لا يأبه لكل هذا، وهو يعود للتحرك بسيارته، وعقله ما يزال منشغلًا بما رآه.

****

«٢٠١٧»

ظل عقل «يوسف» يئزُّ في رأسه في طريق عودته بعد العمل إلى منزله، بحثًا عن تفسيرٍ لظهور تلك الرسالة واختفائها المباغتين، وكيفية تصرف بناء على ذلك التفسير، مدركًا وجوب التفكير في كل هذا وحده، فلمن سيقول هذه المصيبة؟؟ وما الذي سيقوله أصلًا، وهو لا



يملك أي دليل ملموس عليها؟! وصل إلى شقته وهو يشعر أن رأسه يكاد ينفجر من الضغط، ليلقي بنفسه فوق مقعده المفضَّل أمام التليفيزيون، والذي تُجاوِره منضدة زجاجية السطح، عليها بضع علب صغيرة وقدّاحة وريموت كنترول ومنفضة سجائر وطبق، وأشياء أخرى كثيرة، فيما يشبه الفوضى. انتقى من إحدى العُلب واحدةً بعينها، معدنية ذات لون أسود، فتحها ليلتقط واحدةً من السجائر الملفوفة باليد، المرصوصة داخلها بعناية، ثم التقط الريموت والقداحة، فأشعل السيجارة والتليفيزيون، مختارًا قناة عشوائية تعرض فيلمًا ما، وساحبًا نفسًا عميقًا وهو يخلع حذائيه، ويحاول الاسترخاء في مقعده، وجفناه يرتخيان على عينيه الواسعتين بهدوءٍ.

****

«٢٠١٧»

لم يكن الجلوس على المقاهي عادة من عادات «عزت»، فهو لا يحب رائحة الدخان، ويفضِّل كوب الشاي الذي يعرف كيف يعده لنفسه، على أيِّ واحدٍ آخر، لكنه وجدَ نفسه رغم ذلك يوقف سيارته قُربَ ذلك المقهى الهادئ، والذي بدا أكثر هدوءًا في ذلك الوقت المتأخر من الليل، مع الإضاءة الخافتة، ولسعة البرد الخفيفة، والجو الضبابي، وصوت «عبد الحليم حافظ» المنبعث من الداخل بأغنية ما. ترجّل بملابسه الأنيقة



إلى الجو الشعبي الحميمي للمكان. ورغم كثرة المناضد الخالية، فقد توجه «عزت» نحو واحدة يجلس إليها رجل يدخن الشيشة، واقترب منه حتى وقف أمامه بالضبط، والرجل لا يفعل شيئًا سوى سحب الدخان وإخراجه من أنفه، لم يرفع عينيه حتى نحو ذلك الذي اقترب منه بشدة وكأنه صديق حميم.

- أنت!

قالها «عزت»، ليرفع الرجل عينيه إليه أخيرًا، ببطءٍ وهدوء، وفجأةً، ينزع حجر الشيشة بما عليه من فحم متوهج، ليلقيه على وجه «عزت» الذي صرخ ألمًا ودهشةً، فقط لينهض الرجل مستغلًا صدمته، وينزع خرطوم الشيشة الطويل بسرعةٍ، ويقفز ليقف خلفه مطوقًا عنقه بالخرطوم، ويجذبه ضاغطًا عليه بقوة...

****

«٢٠١٢»

- ارجعي له..
- إيه؟؟
- ارجعي لجوزك..
- إنت بتقول إيه؟!
- أنا مش قادر خلاص.
- مش قادر على إيه؟؟
- على الدور اللي مكتوب لي ده، مش قادر أعيشه فعلًا، مش قادر أكمل!



تساقطت العبرات الساخنة على وجهها، وهي تقول بألمٍ:

- بس أنا حبيتك!

- وأنا كمان حبيتك، بس الحب وحدَه مش كفاية. أنا مابقيتش قادر أضحك على نفسي أكتر من كده، حاولت والله وماعرفتش، مش قادر أتقبل إنك كنتِ مع واحد غيري قبلي، حتى لو كان جوزك، مش قادر فعلًا، مش قادر!!

****

«٢٠١٧»

- «نديم»! «نديم» أنت فين؟؟ أنا عايز أقابلك دلوقت..لأ.. لأ مش هينفع بكره.. مش هينفع بعدين باقول لك!! أنا لازم أقابلك دلوقت، دلوقت حالًا، أنا هاتجنن! متتأخرش يا «نديم» من فضلك! سلام

أنهى «يوسف» الاتصال بصديقه وهو يلهث من فرط الانفعال، ويجمع حاجياته من مفاتيح وحافظة نقود وخلافه، ناظرًا حوله بخوفٍ وارتيابٍ، قبل أن يندفع خارجًا من شقته، صافقًا بابها خلفه بعنفٍ، كأنه يرغب في الهرب منها، أو حبس شيء ما بداخلها.

****

«٢٠١٧»

...شعر (عزت) بالخرطوم وهو يحز في رقبته،



والهواء وهو ينقطع عن صدره. الرؤية تتضبب أمام عينيه، ويكاد يفقد وعيه، لولا أن استجمع كل قوته كي يرفع قدمه، ويهوي بها على قدم الرجل، لترتخي قبضته قليلًا عن الخرطوم، الذي يسرع بوضع يده بينه وبين عنقه، فيدفعه ليلقيه بعيدًا، ثم يستدير ليواجه خصمه، فيُكيل له لكمة عنيفة في أنفه، يترنح إثرها رغم القوة البادية على جسده المتناسق الممشوق، لينتهز «عزت» الفرصة ويجهز عليه، لكمة تلو لكمة، حتى يسقط الرجل أرضًا على ظهره، فيجثم فوقَه، ويتابع لكمَه في فورةٍ من الجنون، لا يفيق منها إلا ووجه الرجل محطَّمٌ تمامًا، غارقٌ في الدماء، وقد غادرت أنفاسه صدرَه للأبد. هنا فقط يفطن «عزت» لما فعله، وهو يرفع يديه المخضبتين بالدماء أمام وجهه مذعورًا، منتقلًا ببصره بينهما وبين ملامح الرجل التي تشوهت تمامًا، لكنه رغم ذلك يميزها ويعرفها، يعرفها جيدًا، فيصرخ عاليًا، ويظل يصرخ حتى يستيقظ من نومه معتدلًا على فراشه، في غرفته، في شقته، وهو ما يزالُ يحدِّق بيديه، كأنه لا يصدق خلوهما من الدماء، وقلبه يخفق بعنفٍ مما رآه وفعله في ذلك الكابوس.

****

«٢٠١٧»

في سكة زمان راجعين، في سكة زمان، في نفس المكان ضايعين، في نفس المكان..



جلس «يوسف» إلى أحد مناضد المقهى، وصوت الأغنية يتسلل لأذنيه، دون أن يرفع عينيه إلى شاشة التليفيزيون التي تعرضها، دون أن يرفع عينيه إلى أيّ شيءٍ في الواقع، وكأنه يخشى ذلك بشدةٍ، وقد أسند رأسه المطرق نحو الأرض، على قبضتيه المضموتين بعصبيةٍ، في انتظار «نديم». حتى وهو يخبر القهوجي بطلبه منذ قليلٍ، لم يرفع عينيه إليه، وكأنه يخشى أن ينظر إلى أحدٍ، أو أن ينظر إليه أحدٌ، في سابقة لم يعرف لها مثيلًا من قبل، في حياته كلها.

****

«٢٠١٧»

- أنا قتلته يا دكتور، قتلته بإيدي!

- في الحلم يا «عزت»، مش في الحقيقة.

قالها دكتور «شعيب»، طبيب «عزت» النفسي، وهما يجلسان على مقعدين كبيرين متقابلين في العيادة، وقد عاد (عزت) ليقول:

- بس الموضوع ده أكيد له معنى، أنا عمري ما حلمت حلم بالعنف ده.

- كلنا بنحلم أحلام غريبة ساعات، وبنعمل فيها حاجات عمرنا ما نتخيل إننا نعملها في الحقيقة، ومابنعملهاش فعلًا.

- صحيح هو اللي هاجمني الأول، وأنا.. جايز أكون اتخضيت لما مات فعلًا، وشُفت دمه مغرّق إيدي، بس



وأنا باضربه.. في الحلم، كنت حاسس إحساس عجيب قوي.. حاسس إني مرتاح، أو باعمل حاجة كان نفسي أعملها من زمان.

- إنت تعرف الشخص ده؟

- أبدًا، بس هو نفسه اللي كتبت عنه في القصة اللي قلت لك عليها، هو بكل تفاصيله وملامحه بالظبط.

- مش غريب إنك تحلم بشخصية في قصة إنت اللي كاتبها.

- بس الغريب إني أشوفه في الحقيقة.

- بالعكس، كده الموضوع منطقي أكتر، طبيعي إن الشخصيات اللي بتشوفها في الحقيقة، تبقى إلهام لشخصيات في قصة بتكتبها.

- بس أنا شفته بعد ما كتبت عنه، مش قبل.

- أكيد شُفته الأول وبعدين كتبت عنه.

- مستحيل يا دكتور، أنا متأكد!

- ممكن تكون شفته وماركزتش معاه وقتها، بس صورته اتخزنت في عقلك من ساعتها، وخرجت وقت الكتابة.

- بدقة التفاصيل الرهيبة دي؟! ده كان هو!

- إنت شُفته فين الشخص ده؟

- كان.. بيعدّي الشارع في إشارة قُدّامي.

- ولحقت تشوفه كويس؟

- أيوه، أنا متأكد.

- وكنت مروَّح من شغلك للبيت ساعتها؟



أومأ «عزت» برأسه، ليكمل «شعيب»:

- ده بيرجح وجهة نظري، في إن إنت والشخص ده في الغالب بتمروا على نفس النقطة دي بصفة متكررة، في وقت الرجوع من شغلك وشغله تقريبًا، وانت عمرك ما ركزت معاه، غير لما بدأت تستلهم تفاصيله في دماغك، وتكتبها قدامك.

- بس أنا حتى ماكتبتش تفاصيله دي لسه عشان أبقى حافظها كده، هي اتكونت في دماغي وحدها، ومش راضية تفارقها، وأنا مش عارف ليه.

- على العموم، مافيش حاجة تقلق في الموضوع لغاية دلوقتي، الحكاية كلها عبارة عن قصص وأحلام، حتى لو فيه أي تشابه بينها وبين الواقع، أيًا كان سببه.

صمت «عزت» قليلًا وهو يدير عينيه حوله، كأنه لا يدري كيف يرد، قبل أن يقول:

- بس أنا خايف.

- خايف تقتل؟

- .. يمكن..

- وانا عارفك كويس، إنت بتتردد عليّ بقى لك سنتين تقريبًا، ومن تحليلي لشخصيتك، أقدر أقول لك وأنا متطمن، إنك لا يمكن تقتل.

لم يبد «عزت» مقتنعًا وهو يتململ في مقعده بتوتر، ليعود «شعيب» ويقول:

- إنت أول مرة تكتب يا «عزت»؟ بشكل أدبي أقصد..

- أدبي وغير أدبي.



- ساعات الكتابة بتكون وسيلة لتفريغ إحساس مُعيَّن، إحساس بالخوف أو الذنب مثلًا، ولو حطينا الحلم معانا في الحسبان، فممكن نقول إن فيه إحساس مُعيَّن بالذنب، تجاه شخص معين، مش لازم يكون الراجل اللي قتلته في الحلم، الراجل ده ممكن مايكونش أكتر من رمز للذنب اللي مضايقك أو مخوِّفَك، وقتلك ليه في الحلم، هو وسيلة عقلك في محاولة التخلص من الذنب ده.

تسمر «عزت» في مكانه، وتصلبت نظراته قليلًا، و(شعيب) يكمل قائلًا:

- فيه حاجة معينة إنت عملتها، محسساك بالذنب؟

****

«٢٠١٧»

- كنت بتحلم طبعًا يا «يوسف»، الرسالة لا جات لك، ولا اتمسحت لوحدها، إنت اللي حلمت بكل ده.

قالها «نديم»، الذي جلس على منضدة المقهى قبالة «يوسف»، الذي عقد حاجبيه، قائلًا:

- وإيه اللي يخليني أحلم حلم منيّل بستين نيلة زي ده؟!

- ما أعرفش.. قلقك وخوفك على مراتك جايز.

- أنا كده خايف منها مش عليها.

ندم فور نطقه بعبارته التي شعر أنها خرجت دون وعيٍ منه، وشعر أن «نديم» أيضًا لا يعرف كيف يرد،



ليضيف، وكأنه يحاول محو أثر ما قاله:

- وبعدين هي مش أول مرة تسافر لوحدها عشان أقلق كده المرة دي بالذات، أنا واخد على ظروف شغلها وسفرها.

- قُل لنفسك..

ليعود «يوسف» ويقول بإصرارٍ:

- طب وموضوع الفيلم اللي في التليفيزيون ده؟! أنا كنت حاسس إنهم بيتكلموا عنّي! بيكلموني! وعن المشكلة دي بالذات!!

- أكيد كان بيتهيأ لك.

- أنا قلبت ستين قناة، وفتحت «التابلت» وجِبْت من عليه كذا فيلم وكذا مسلسل، كل مرة كنت باشوف.. كنت باحس إن.. إنه..!!

- إنت كنت شارب حاجة ساعتها يا «يوسف»؟

قالها «نديم» بلهجة الخبير الذي اكتشف أخيرًا حلَّ اللغز، أو هكذا بدا لـ «يوسف»، ليرفع عينيه إليه، قائلًا بحِدَّةٍ:

- حاجة إيه؟!

أشار «نديم» إلى شفتيه في حركةٍ ذات مغزى، وهو يقول مبتسمًا:

- حاجة كده.. حشيش مثلًا..

- الحشيش مابيعملش هلاوس.

قالها بغضبٍ، ليسترخي «نديم» في مقعده، قائلًا في ظفرٍ:



- يعني كنت شارب..
- أنا مش أول مرة أشرب.
- ما دي المصيبة.
- قلت لك الحشيش مابيعملش كده!
- وأنا قلت لك مية مرة تبطّل الهباب ده عشان هيخرب لك دماغك.
- مُقنعة قوي النصيحة دي وهي خارجة من واحد خمورجي.
- إنت جاي تنظَر عليّا ولّا تشوف حل لمشكلتك؟!
- أنا آسف.. أنا .. أنا مش عارف أقول إيه ولّا أعمل إيه يا «نديم»، أنا تعبان قوي!

قالها وهو يدفن رأسه بين كفيه، ليقول «نديم»، متجاوزًا غضبه من عبارته السابقة، ومحاولًا تهدئته:

- ماتعملش حاجة يا (يوسف)، بطّل الهباب اللي بتشربه ده، واتصل بمراتك اطمن عليها، وخليك واثق فيها، مراتك ست كويسة، عمرها ما بصّت لحد غيرك، ولا يُمكن تسمح لواحد تاني ياخدها منك، وانت عمرك ما خدت واحدة من جوزها مثلًا عشان تبقى خايف قوي كده لا تترد لك.

لم يبد على «يوسف» أي تحسن، لم يرفع رأسه عن كفيه حتى، بل بدا وكأنه في حالِ أسوأ يحاول إخفاءها عن «نديم»، الذي صمت قليلًا، وقد ارتسم على وجهه شئ من الشك، قبل أن يضيف بتردُدٍ:

- ولّا.. ولّا انت عملت كده فعلًا يا «يوسف»، وخايف



لا تترد لك بجد؟؟!

****

«٢٠١٢»

- ده انتي جاية تهزري بقى! بعد ما حبيب القلب سابك، راجعة تعيطي لي؟! عايزاني أعمل لك إيه يعني؟!!

منهارة ردّت:

- عايزاك تسامحني! أرجوك سامحني، أنا آسفة! أنا غلطانة!!

- يا سلام! بالبساطة دي؟! تخونيني معاه، ولما يسيبك، ترجعي تعيطي وتقولي لي سامحني؟!!

صرخت في وجهه فجأةً من بين دموعها:

- على فكرة بقى أنا ماخُنتكش معاه أصلًا! إنت اللي كنت فاكر كده! إنت اللي خلّتني أروح له بعد ما اتخليت عني!!

- يا حرام! أنا اللي دفعتك لأحضان الرذيلة، مش كده؟؟

- أيوه! إنت السبب في كل ده.. أنا ماحصلش بيني وبينه أي حاجة إلا لما انت سبتني!!

- بس حصل..

- أنا كنت ست مطلقة!

- تمام.. وأنا بقى مش عايز واحدة لمسها واحد غيري، أنا دماغي كده، ماباعرفش آكل من طبق حد غيري تفَ



فيه.

ارتجفت شفتاها ألما من عنف التشبيه، قبل أن تقول:

- أنا مابقِتش عارفة أروح فين ولا لمين.. حاسَّة إني هاتجنن!

- إتجنني..

- هاموِّت نفسي!!

صمت قليلًا كأنه يفكر، أو هكذا بدا لها، أو هكذا تمنَّت، قبل أن يصك مسامعها صوته، وهو يقول ببرودٍ:

- موتي..

****

«٢٠١٧»

أحكمَ «يوسف» قلنسوة سُترتِه الداكنة على رأسه، وهو يقف في الشارع مستترًا بها وبالظلام. ارتجف فلم يعرف بردًا أم توترًا، أم الاثنين معًا. تململَ في وقفته، وفكَّرَ في التراجع ألف مرة عما يفعله. تارة يحتقر نفسه، وتارة أخرى يهزأ منها، وهو يشعر أنه في فيلمٍ رخيصٍ سخيفٍ. نفث دخان سيجارته، وعيناه معلقتان بالبناية التي وقف مستترًا عن مدخلها، بناية المكتب الذي تعمل به «آسيا»، والتي عادت من سفرها منذ يومين فحسب، كان تعامُلها فيهما معه كما هو، كما عهدها دائمًا، الزوجة المشرقة المحبة له وللحياة، وكان تعامله معها كما هو كذلك، لكنه يخفي تحت سطحه الهادئ إعصارًا من الشك، لم يتمكن من كبحه رغم محاولاته، ورغم نصائح



«نديم»، ليجد نفسه في موقفه هذا الآن، يقف مرابطًا متخفيًا أمام عملها، كي يتبعها حين تخرج، فيعرف أين ستذهب بعده، وماذا ستفعل.

شعر بشيء يقطر على وجهه فجأةً، فرفع رأسه مجفلًا، وكاد يقفز من مكانه فاضحًا ما يفعل، لولا تمالكه لنفسه في اللحظة الأخيرة، وقد فطن لزخات المطر التي بدأت تهطل من السماء، وكانت لتسعده في أي وقت آخر، لكنها تزعجه جدًا الآن، وتجعله يزفر في حنقٍ، متخيلًا صعوبة مهمته، الصعبة أصلًا، وقد ازدادت صعوبة، في جوٍّ ملبدٍ ورؤية مشوشة.

انقطع حبل أفكاره لمرأى زوجته وهي تخرج من البناية، في معطفها الأسود الذي رآها تخرج به في الصباح، ليلقي السيجارة التي ابتلت من المطر بعيدًا، ويسحب نفسًا عميقًا مأهبًا نفسه لما هو مُقبِلٌ عليه، وداعيًا الله أن يخيب ظنه في شكوكه التي تكاد تقضي عليه.

رآها توقف سيارة أجرة وتستقلها، ففعل المثل، وتبعها محافظًا على مسافة آمنة بين سيارتيهما، كي لا تراه أو تنتبه له. وحين ابتعد خط سيرها عن طريق العودة إلى المنزل، شعر بشيء يشبه الشوكة في حلقه، وهو يقنع نفسه أنها في طريقها لشراء شيء ما مثلًا، حتى دخلا في منطقة راقية هادئة، شِبه خالية من المتاجر، فتعاظمت الشوكة في حلقه، حتى صار ابتلاع ريقِه عسيرًا بحقٍّ، وهو ما يزال يقنع نفسه أنها في طريقها



لزيارة صديقة ما، رغم أنه لا يذكر لها صديقة تسكن هنا، ولا حتى بالقرب من هنا، على الإطلاق.

توقفت سيارتها أخيرًا وسط بنايات شديدة الفخامة والجمال، فترجلت تحاسب السائق وتعدل من هندامها، وانتظر هو حتى رآها تدخل واحدة من تلك البنايات، ليترجّل هو كذلك من سيارته، ويحاسب سائقها سريعًا، وهو يشعر بقلبه يؤلمه، ويكاد يثب من صدره، من شدة دقه وسرعته. نظر حوله للمنطقة التي يقف فيها، والتي تشي بثراءٍ بالغٍ لقاطنيها، لتؤلمه أكثر، فكرة أن يكون هذا هو سبب خيانتها له. أن تخونه زوجته، فهذا مؤلم في حد ذاته، لرجولته، لكن أن تخونه من أجل رجل أغنى أو أعلى قدرًا منه، فهذا مؤلمٌ أكثر، لكرامته، ويجعله يشعر بشيء من الدونية في نفسه، ومن وضاعة أكثر في شخصيتها هي.

اقترب من البناية التي دخلَتها بحذرٍ، وراقب مدخلها مستترًا ليتأكد من خلوّه أولًا، قبل أن يدخل إليه هو الآخر، ويتجه نحو المصعد الوحيد الأنيق في منتصفه، فيقرأ رقم آخر طابق سُجّلَ في الشاشة الصغيرة أعلاه، الطابق الرابع. وبما أنه لم يرَ أحدًا يدخل البناية بعد زوجته الفاضلة، فلا ريب أنه الطابق المنشود. طلب المصعد الذي هبط له ليدخله، فيتسمر قليلًا من رائحة العطر التي تعبقه، ويعرفها جيدًا، ليشعر بخدرٍ غريبٍ، كأن كل هذا غير حقيقي ولا يحدث حقًا، كأنه يحلم، أو يتمنى لو أنه يحلم، وهو يضغط زر الطابق الرابع، متمنيًا



في كل لحظة تمر عليه، أن يصحو ليجد أن هذا كله لم يكن إلا كابوسًا.

لكنه وصل للطابق المنشود للأسف، في رحلةٍ بدت له مرهقة وطويلة للغاية، انفتح بعدها باب المصعد، ليشعر فجأةً برغبةٍ في الفرار. ليترك الأمر عند هذا الحدّ كي لا تتأكد له المصيبة برؤيتها. ليقنع نفسه أن زوجته الآن في شقة صديقة لها، وليس رجلًا تخونه معه. لكنه يقتل كل هذا في نفسه، لأنه من الغباء فعلًا أن يتراجع بعد كل هذا، ليجد نفسه يسرع بوضع يده أمام باب المصعد الذي كاد يغلق عليه من جديد، ويسرع بالخروج منه.

نظر حوله ليجد أمامه بابين، احتار قليلًا في الاختيار بينهما، حتى هبطت عينه إلى الأرضية التي طُبعت عليها آثار حديثة لحذاء مبلل، يحمل القليل من تراب الشارع الذي تحول إلى طين بفعل المطر، ورأى هذه الآثار تقوده نحو أحد البابين.

****

«٢٠١٧»

«رأيي إنك تكمل كتابة في القصة بتاعتك، منها تفرّغ مشاعرك بدل ما تتحول لكوابيس، ومنها تعرف مشاعرك دي ممكن توصلك لإيه، جايز تكتشف حاجات جديدة»

استرجع «عزت» ما قاله طبيبه النفسي في نهاية آخر لقاءِ بينهما، وهو يجلس في شقته متطلعًا لملف القصة المفتوح على (اللابتوب) أمامه. وسحب نفسًا عميقًا



وهو يضع أصابعه على لوحة المفاتيح، ويكتب:

لم يتحرك الرجل الجالس على الأريكة من مكانه، لم يدرِ حتى رأسه وكأنه لا ينتبه، أو لا يهتم، لوجود «عبد العزيز»، الذي تسمَّر في مكانه يحدِّق فيه بخوفٍ شديدٍ، بعينين متسعتين تصلَّبَتا عليه. أجبر قدميه أخيرًا على التحرك ليدور حول الأريكة، وكأنه يرغب في التأكد مما يراه، أو في زاويةٍ أكثرَ وضوحًا لهيئة الرجل وملامحه. كل هذا والرجل ثابت في مكانه، لا يتحرك قيدَ أنملَةٍ كأنه تمثال، أو جثة تيبَّست على وضع الجلوس. لا يتحرك فيه شيء، حتى عيناه لا ترمشان. وفجأةً، أدار رأسه نحو «عبد العزيز»، الذي شعر وكأن دقات قلبه لكمته في صدره من قوَّتها، وهو يفتح فمه ليصرخ. لكن ما صكَّ أذنيه لم يكن صوت صرخته الملتاعة، بل صوت آخر، احتاج لوقتٍ كي يفهم ماهيَّتَه. وحين أدرك أخيرًا أنه صوت جرس الباب، وحانت منه التفاتة، لم تستغرق جزءًا من الثانية، نحو مصدره، كان الرجل الجالس على الأريكة قد اختفى من عليها، حين عاد بعينيه إليه، اختفى من المكان كله تمامًا، وكأنه تبخر فجأة في الهواء.

****

«٢٠١٧»

اقتربت يد «يوسف» من زر جرس الباب المنشود، وهو يراجع كل ما يمكن أن يقوله أو يفعله بعد أن



يضغط عليه، دون أن تستقر فكرة واحدة منطقية في رأسه المزدحم المشوش. هل يقتحم الشقة فجأة باحثًا عن زوجته؟ هل يتظاهر بأنه تائه ويتحجج بأي علة تمكنه من الدخول ليستطلع ما فيها ومن فيها خلسة؟ تزاحمت الأفكار والخيالات المؤلمة في رأسه حتى شعر أنه سينفجر، ليجد إصبعه يضغط الزر بإصرار رغمًا عنه، وعيناه معلقتان باللوحة الصغيرة المعلقة على الباب، وقد كُتب اسم صاحبها عليها بخط زخرفي أنيق.

****

«٢٠١٧»

خفق قلب «عبد العزيز» بقوّة أكبر، وهو لا يعرف ما أفزعه أكثر، ظهور الرجل المفاجئ، أم اختفاؤه المفاجئ أيضًا. دار بعينيه في المكان محتارًا كأنه لا يعرف ماذا يفعل أو عما يبحث. كل شيء بدا له كما هو وفي موضعه بطريقة مستفزة في براءتها، وكأن شيئًا لم يكن، وكأن الصالة بأسرها تسخر من قواه العقلية، حتى التلفاز عاد كما تركه هو حين أطفأه. وجد نفسه يتجه نحو الأريكة ببطءٍ خائفٍ وينحني عليها ليتحسسها، فيرفع يده ملتاعًا، وقد شعر بدفءٍ يؤكد أن شخصًا كان يجلس عليها الآن. ولا يكاد يعتدل محاولاً التقاط أنفاسه، حتى يعاجله رنين جرس الباب ثانية، فينتفض، لكنه ينتفض متجهًا إليه هذه المرة، وكأنه يأمل في أي وجودِ آدميّ، أو نجدة ترده إلى أرض الواقع، وتنقذه مما



هو فيه من جنون.

فتح الباب ليجد أمامه رجلاً طويل القامة، شديد الوسامة، أبيض البشرة، أسود الشعر والعينين، له لحية خفيفة مهذبة بعناية، وشامة سوداء أعلى خده الأيسر، لتتسع عينا «عبد العزيز» عن آخرهما، فقد كان هذا هو بالضبط، نفس الرجل الذي ظن نفسه يهذي، حين رآه يجلس على أريكته منذ قليل.

انقطع حبل أفكار (عزت) بغتة وهو ينتفض، حتى كاد يُسقط (اللابتوب) عن ساقيه، حين سمع صوت جرس باب شقته هو، في أرض الواقع، وهو يدق بإلحاح، تمامًا كما كتب حالاً، في قصته.

****

«٢٠١٧»

كوّر «يوسف» قبضته حين تأخَّر فتح الباب، وكأنه يستعد لطرقه بعنفٍ، أو لكم أيًا كان من سيفتحه، وهو يقرأ الاسم المنحوت على اللوحة الصغيرة أمامه بعينيه مرارًا، وكأنه يبحث عنه، أو عما يثيره، في ذاكرته، وهو شبه متأكد أنه يعرفه، أو يعرف جزءًا منه.. «عزت المصري».. «عزت المصري»...

****

«٢٠١٧»

وحين انفتح الباب أخيرًا، اتسع زوجان من الأعين



معًا، زوج على وجه «عزت» الذي تراجع مشدوهًا، وهو يرى الرجل الذي طارده في قصته وأحلامه واقفًا أمامه، بشحمه ولحمه، وزوج على وجه «يوسف» الذي تقدَّم غاضبًا، وهو لا يرى في الصدمة المرتسمة على وجه «عزت»، إلا نظرة فريسة سقطت في يد مُطارِدِها، أكدت له كل شكوكه دفعةً واحدةً.

- هي فين؟؟!

قالها «يوسف» وهو يخطو داخل الشقة، بصوت أجش مخيف، ارتجف له «عزت» وهو يتراجع أكثر، محدقًا في وجهه الذي ارتسم عليه تعبير متوحش غريب، وهو يعيد سؤاله بصوتٍ جَهوريٍّ، ويدور في أنحاء الشقة كثورٍ هائجٍ يحطم كل ما في طريقه، وهو يخرج من غرفة إلى أخرى، حتى يعود ثانيةً إلى الصالة وهو يتنفَّس من منخاريه بعنفِ كثورٍ حقيقيٍّ، وبشراسة يقول:

- وديتها فين؟؟! خبيتها مني فين؟؟!!

هنا فقط يرتد عقل «عزت» المذعور إلى رأسه، ليصيح فجأةً فيه:

- هي مين؟!! وأنت مين؟؟! وعايز إيه بالظبط؟!!

- أنا برضو اللي مين وعايز إيه؟!!

قالها «يوسف» بصوت يشبه الخوار وهو يندفع نحوه بسرعة ويلكمه بعنفِ، ليسقطا أرضًا معًا، وتشتبك أيديهما في التحام عنيفِ، بدا وكأنه لن ينتهي إلا بموت أحدهما، وإن مالت الكفة أكثر لصالح «يوسف»، الذي



ضيق الخناق على «عزت» ليحشره في زاوية صعبة، وأحاط عنقه بكفيه ليبدأ بالضغط عليه بقوة، والأخير يجاهد كي يلتقط أنفاسه، أو يبعد خصمه عنه، حين طرق مسامعهما فجأةً، صوت عال، كأنه باب يُصفَقُ بعنفٍ، ليرفع «يوسف» عينيه نحو مصدر الصوت، والذي كان باب الشقة وهو يُغلق فعلًا، وقد بدا أن تيارًا من هواء تسبب في ذلك، ليستغل «عزت» ذلك الجزء من الثانية، الذي تشتت فيه تركيز «يوسف»، فيدفعه في صدره بقوة، وينهض بسرعة ليركض نحو الباب، رغم دوار رأسه العنيف الذي أجبره على التعثر مرتين، في محاولة للهرب من الشقة كلها، ريثما يطلب الشرطة أو النجدة من أحد الجيران، فقط ليفاجأ، وقبل أن تمتد يده إلى مقبض الباب، بالمفتاح وهو يدور من تلقاء نفسه في فتحته مرتين، ليصدر الكالون تكّتيه المميزتين، فيوصَد الباب، ثم ينكسر المفتاح في الكالون من تلقاء نفسه كذلك، أمام عيني «عزت» الذاهلتين.

****

- فيه إيه؟! إيه اللي بيحصل؟!! إيه اللي بيحصل؟!!

صرخ بها «عزت» منهارًا، وهو ينقل بصره بين الباب الذي يحاول فتحه بلا جدوى، و «يوسف» الذي نهض من سقطته يمسح الدماء عن أنفه، وكاد يقول شيئًا ما، حين صك مسامعهما ثانيةً، صوت أنثويٌ يأتي من مكانٍ لا يمكن تحديده، كما لا يمكن تحديد ماهيته كذلك، وهل هو صرخة أم ضحكة، تبعه ما يشبه همسًا عاليًا



في أذنيهما كالوسوسة، جعل «عزت» يغلق أذنيه بكفيه وهو يصرخ بجنون، و «يوسف» يتلفت حوله بعصبية، قبل أن يندفع نحو «عزت» ثانية، ويمسكه من تلابيبه وهو يهزه بعنفٍ، ويقول:

- هي فين؟ أنا سامع صوتها!! هي فين؟؟!

لم يبد «عزت» في حال تسمح له بالإجابة، أو حتى الاستجابة بأي شكلٍ كان، وهو ما يزال على حالته الصارخة المنهارة، وفجأةً، صمت تمامًا كأنه هدأ، وأنزل يديه من على أذنيه، لينظر في عيني «يوسف» بثباتٍ غريبٍ، وهو يقول:

- ده مش صوتها يا «يوسف»، ده صوتي أنا، معقول نسيت صوتي؟!

لكن غرابة تلك العبارة، لم تنبعث فقط من كلماتها، وإنما من الصوت الذي خرجت به، صوت مغاير تمامًا لصوت «عزت»، بل لأي صوت رجولي في العالم، صوت جعل عيني «يوسف» تتسعان وهو يترك ملابس «عزت» فجأة كأنما لسعه عقرب، ويقول بذهولٍ:

- «زينة»؟!!

****

تراجع «يوسف» بظهره متسع العينين، وهو يرى «عزت» ينهض بهدوء متقدمًا نحوه، وفي عينيه تصلبت نظرة عتاب حزين، وهو يتابع بنفس الصوت:

- ليه عملت فيا كده يا «يوسف»؟ ليه عملتوا فيا كده انتوا الاتنين؟



ظل «يوسف» يتراجع في رعبٍ غير مصدق، حتى ارتطم بمنضدة تعثَّر بها لتنقلب ويسقط معها أرضًا على ظهره، و «عزت» يواصل اقترابه منه، منحنيًا عليه وهو يقول:

- ليه سبتوني أموت؟؟

ذاهلًا حاول جمع شتات نفسه، كي يقول بأنفاسٍ متقطعةٍ:

- إنتي اللي.. إنتي اللي عملتي كل ده؟!

- سنين وأنا باقاوم وأحاول أعيش لحد ما استسلمت في النهاية، وانتوا السبب.

ثم ارتسمت ابتسامة مخيفة على شفتي «عزت»، واتسعت عيناه وهو يقول:

- على فكرة، مراتك بتخونك فعلًا، بس مش مع طليقي، اللي إنت مشيت وراها لحد هنا دي ماكانتش هي، كانت أنا.

- طليـــ... «زينة».. «زينة» كان طليقها اسمه.. «عزت».. (عزت عبد الإله)!

- «عزت عبد الإله المصري»، أنا بس عمري ما قلت لك اسمه بالكامل.

اتسعت عينا «يوسف» برعب، وهو يقول:

- وانتي.. عايزة مني إيه دلوقت؟؟! عايزاه يقتلني؟!!

- لأ.

ثم صمتت قليلًا، قبل أن تكمل:

- عايزاكوا انتوا الاتنين تقتلوا بعض..



****

- بس أنا ماعنديش سبب أقتله عشانه!

هتف بها «يوسف»، لترد «زينة» على لسان «عزت»:

- ولا هو عايز يقتلك على فكرة، لو كان عايز كان دوَّر عليك وقتلك من زمان، لكن انتوا برضو هتقتلوا بعض، لأن أنا اللي عندي سبب أقتلكوا عشانه إنتوا الاتنين!

فجأة تصلب جسد «عزت»، وارتسم على وجهه تعبير ذاهل، وهو يتطلع إلى «يوسف» الذي تغيرت عيناه، وبدا وكأن الدور عليه ليصرخ هو بصوت «زينة» هذه المرة، قائلًا:

- عشان انتوا الاتنين ظلمتوني وقتلتوني!!

اتسعت عينا «عزت»، وهو يقول:

- أنا ماقتلتكيش!

- بس سبتني أموت!!!

- ماكنتش فاكرك هتموّتي نفسك بجد!!

خرجَ صوتها حزينًا من شفتيّ «يوسف»، مع عبرات تساقطت من عينيه، وهي تتابع:

- زي ما برضو ماكنتش مصدق إني ماخنتكش بجد.

هنا تصلب «يوسف»، وإن لم يرتسم نفس التعبير الذاهل على وجهه، بخروج «زينة» من جسده، كما حدث مع «عزت» منذ قليل، بل بدا وكأنه يقاوم شيئًا، وعيناه تتسعان بجنونٍ، وهو يطلق صرخةً رهيبةً، حملت كلمة واحدة فحسب:

- لأ!!!!



خرجت مشوهةً في مزيجٍ غريبٍ مخيفٍ بين صوته وصوتها، و «عزت» يتابع ما يحدث برعب، وهو يرى «يوسف» يضرب الأرض بقبضته عدة مرات بصعوبة، كأنه يعترض، قبل أن يخرج منه نفس الصوت المشوه، صارخًا:

- إنتي خنتيه فعلًا! إحنا كنا على علاقة وانتي لسه على ذمته!!

انهار جسده بعدها، ليخرج صوته العادي متهالكًا، وهو يقول:

- ماحدش فينا ظلمك.. إحنا مانستاهلش نموت..

****

- لأ تستاهلوا!!!!

اخترقت الصرخة أذنيهما معًا، ليغطيانها بقوة، قبل أن يسمعا صوت «زينة»، وهو يقول ثانية:

- وماحدش فيكوا هيخرج من هنا إلا لما يموّت التاني، أو تموتوا انتوا الاتنين!

ورغم خوفه وإصاباته المتعددة، انتفض جسد «يوسف» فجأةً وهو ينهض متجهًا نحو باب الشقة، فقط ليشعر بقبضة تلتف حول كاحله وتجذبه بعنف، ليسقط على وجهه صارخًا، فيلتفت ليجد «عزت» متمسكًا بقدمه، وعلى وجهه نظرة ارتياع، وهو يهتف:

- أنا مش عايز أعمل كده.. أنا.. أنا مش عارف أسيطر على.. مش عارف..!!

رفع «يوسف» قدمه الأخرى رغمًا عنه، وراح يهوي بها



على يد «عزت» ورأسه وكل ما يستطيع الوصول إليه من جسده، محاولًا تخليص نفسه منه، وهو يكز على أسنانه صارخًا، فقط ليسمع صوت «زينة» الهامس في أذنه، وهو يقول:

- ماتحاولش، أنصحك ماتحاولش تخرج، ولا تصرخ، عشان لا هتعرفوا تخرجوا، ولا حد هيسمعكم.

اتسعت أعينهما معًا وهما يلتحمان في قتالٍ أعنف من كل ما سبقه، الفارق الوحيد الآن أنه.. ليس بإرادتهما تمامًا، وكأنه لا سيطرة كاملة لهما على جسديهما. يجد أحدهما ساقه تندفع بشراسةٍ في بطن الآخر رغمًا عنه، فلا يجد الآخر بُدًا من الدفاع عن نفسه أمام هذا الهجوم، لتعود الآية وتنقلب، فيتبادلا الأدوار، وهكذا دواليك، حتى شعر الاثنان أنهما على وشك لفظ أنفاسهما الأخيرة فعلًا.

وفي غمرة القتال، ارتطم جسد «يوسف» بدولابٍ قصيرٍ، وهو يتراجع من إثر ضربات «عزت» القوية المتوالية، ولا يكاد يرى من كثرة الدماء التي لوثت وجهه، وسالت على عينيه. وارتطمت يده بمزهرية ثقيلة فوق ذلك الدولاب، وجد نفسه يقبض عليها بآخر رمقٍ في إرادته وأنفاسه، ويحطمها على رأس «عزت»، الذي سمَّرته الضربة في مكانه متسع العينين لثوانٍ، قبل أن يهوي أرضًا بلا حراكٍ.

هنا فقط تنهد «يوسف» بقوَّةٍ كأنه سيبكي، وهو يترك جسده ينزلق ليسقط أرضًا وهو يلهث بعنفٍ، وينظر



بطرف عينه متأكدًا من ثبات «عزت» في مكانه. وما إن تمكن من النهوض أخيرًا بجسده المضعضع، ليخطو على ساقيه المرتجفتين نحو باب الشقة، حتى شعر بشيءٍ حادٍّ يخترق عنقه، جعله يشهق بعنفٍ وهو يسقط على ركبتيه متسع العينين، ويده المرتجفة تتحسس قطعة المزهرية الحادة المرشوقة فيه، نفس المزهرية التي حطمها منذ قليلٍ على رأس «عزت». وحين سقط على جانبه أخيرًا، وهو يحاول إيقاف الدماء المنهمرة من عنقه بلا جدوى، ارتسمت أمام عينيه الغائمتين، صورة مشوشة مهتزة لـ «عزت»، الذي سقط كذلك على ركبتيه بجواره، يلهث بعنفٍ والدماء تغطيه، وتردد في أذنيه صوت «زينة»، وهي تهمس بعبارة جعلته يتشنج بقوة، وهو يشهق بصوت أعلى، وعينيه تتسعان عن آخرهما، وهو يسمعها تقول:

- «آسيا» بتخونك مع «نديم»..

****

«٢٠١٨»

خرج دكتور «شعيب» من غرفة أحد المرضى، إلى الممر الخارجي، في المصحة النفسية التي يعمل بها، وهو يغلق الباب خلفه متنهدًا بشيء من الأسف، حيث وقف رئيس القسم، الذي سأله:

- لسه حالته زي ما هي؟

- للأسف يا دكتور.



صمت الاثنان قليلًا كأنهما يفكران، قبل أن يعود رئيس القسم ليقول متسائلًا:

- تفتكر إيه اللي يخلي واحد يقتل عشيق مراته بعد سنين من خيانتها ليه، وبعد موتها هي نفسها كمان؟

بدت الحيرة على «شعيب»، وهو يقول:

- مش عارف يا دكتور، بس أكيد مش عشان روحها تلبسته وأجبرته يعمل كده زي ما هو بيقول:

- حكاية عجيبة قوي.

- وهو متمسك بيها لحد دلوقتي، ومصمم على سكوته عن غيرها، وتقريبًا مابيفتحش بوقه إلا عشان يحكيها.

- في رأيك، فيه أمل إن حالته تتحسن، أو حتى تتغير؟

- مع اللي باشوفه منه، وبعد المدة دي كلها، للأسف ما أظنش.

صمت الاثنان وهما يسيران في الممر، استكمالًا لمرورهما على باقي المرضى. وخلف الباب الذي ابتعدا عنه، جلس «عزت» في غرفته على فراشه محني الظهر، يحتضن جسده بقبضتيه المتشنجتين حول قماش ملابسه بعصبية، وهو يهتز بلا توقف في مكانه، للأمام وللخلف، وفي عينيه الزائغتين تجمدت دموع غزيرة، وهو يردد فيما يشبه همسًا لنفسه، لا يسمعه سواه:

- أنا عملت اللي انتي عايزاه.. عملت اللي انتي عايزاه وقتلته.. عايزة مني إيه تاني؟! سيبيني في حالي بقى! سيبيني!!



تـمَّت

****



زائر الليل الأخير

سأفعلها هذه المرة. سأفعلها حقًا ولن أخبر أحدًا كي تتم في هدوءٍ، وكي تتم فعلًا. لن أتراجع في اللحظة الأخيرة، ولن أملأ الدنيا صراخًا كما في المرات القليلة التي سبقتها، وكما يقولون عن كل من يفعل ذلك، إنهم لا يريدون الموت حقًا، بقدر ما يريدون لفت الأنظار إليهم، واستدرار عطفٍ قد ينقذهم مما هم فيه. لكن أنا؟ أنا لا شيءَ سينقذني مما أنا فيه أصلًا، حتى أطلبه.

جلست على مقعدي المفضل في غرفة المكتب، وأنا أرصُّ العدة اللازمة لما سأفعل على المنضدة الصغيرة أمامي، بيدٍ ثابتةٍ وبلا خوف على الإطلاق، بل بشيء أقرب للسكينة والهدوء. حفنة من أقراص طبية متنوعة، بحثت وسألت حتى جمعتها بدقة وعناية، وزجاجة الويسكي الكبيرة، مع الكأس الصغير بجوارها، ولا شيء آخر. هاتفي المحمول الذي تعمدت ترك بطاريته حتى تنفد طاقتها، بعيد تمامًا عني، هو والهاتف الأرضي الذي نزعت سلكه قبل أن أقصه، كي يصبح قطعة جماد لا فائدة منها. سواد الليل حالك، والوقت متأخر بما يكفي لتقليل احتمالية الزيارات المفاجئة لحد الصفر. وأجمل ما في الأمر، هو أنني أعيش وحدي، فلا مجال لاقتحام أحدهم لخلوتي الأخيرة وإفسادها فجأة.

صببت قليلًا من الويسكي في الكأس، وبدأت في ابتلاع الأقراص بالتدريج، وأنا أدفع كل دُفعة عبر حلقي برشفات من السائل الذهبي الذي أحبه رغم مرارته،



وخاطر من الكوميديا السوداء يمر بعقلي مع كلمة أحبه، التي لا أراها مناسبةً للموقف الآن، بقدر كلمة أحببته، باعتبار ما سيكون بعد قليلٍ، فضحكت وأنا أكاد أشكر تأثير الكحول على رأسي، وقد بدا وكأنه يحاول التخفيف من ثقل الموقف عني.

هل انتابتني لحظة ندم؟ هل شعرت بالخوف؟ أو فكرت في التراجع ولو قليلًا؟ لا. على عكس كل المرات السابقة، تخرج منّي الـ «لا» هذه المرة قاطعة وحاسمة بشكل يريحني كثيرًا. ربما يكون الموت مخيفًا غامضًا، لكنه بالتأكيد يضع حدًا لكل ما أعانيه، كنقطةٍ في نهاية جملة في نهاية فقرة في نهاية كتاب، سيقرأه من يقرأه، وسيهتم به من يهتم، أما أنا، فلم أعد أهتم، لأنني تعبت من المحاولة، تعبت من المعافرة في مشاكل لا تزداد إلا تعقيدًا، فتتركني في حالٍ أسوأ كل مرة.

تابعت الشرب وأنا أفكر. ربما يكون الانتحار جنونًا، لكن المحاولة فيما لا فائدة فيه عشرات المرات، جنون أيضًا! الأسهل والأسرع والأكثر عملية، أن أضع حدًا قاطعًا لكل هذا. ثم إنني لم أعد فقط غير قادر على المحاولة والاستمرار، بل غير راغب في كل ذلك أصلًا. انتفت بداخلي كل رغبة في الحياة حقًا، اللهم إلا رغبة خفيفة تحمل متعة خبيثة ما، وأنا أتخيل ما قد يفعله موتي بمن تسببوا فيه بشكلٍ أو بآخر، بقصدٍ أو بغير قصدٍ، أتخيل إحساسًا بالذنب يطاردهم مدى الحياة، فيريحني ذلك قليلًا، رغم طفولية الفكرة كلها.



أرجعت رأسي أريحها على مسند الكرسي، أو مالت هي للخلف رغمًا عني بتأثير كل ما ابتلعته من أقراصٍ وكحولٍ، غارقًا في خواطري التي راحت تفقد تماسكها وترتيبها، وأفكاري التي انقطع حبلها المهترئ، بصوت دقات أتت من خارج غرفة المكتب، من باب الشقة على وجه التحديد.

****

اعتدلت على مقعدي بصعوبةٍ، وأنا أرتدُّ لأرض الواقع التي أحاول جاهدًا الهروب منها. وتعجبت قليلًا من ذلك الزائر الغريب الذي تجاهل زر جرس الباب، ليقرع على خشبه مباشرةً. فكرت جديًا في تجاهله، متمنيًا أن تخرج روحي من جسدي قبل أن أضطر لمواجهة أي شيء آخر في هذا العالم. لكن الوسيلة التي اخترتها لموتي بطيئة للأسف. وأنا لا أعرف متى يمكن أن ييأس ذلك الطارق منّي، فيتركني لحالي. ولا أريد أن تتلوث السكينة التي جاهدت لأحصل عليها في آخر لحظات حياتي، بطرقاتٍ ربما تَظل تقلقني، حتى آخر نفس في صدري.

ثم إن خاطرًا مُقلقًا آخر أخافني، وأنا أفكر في هوية زائر يأتيني في هذا الوقت من الليل، زائر يعرفني جيدًا على الأرجح، وسيقلقه عدم استجابتي، ليملأه ذلك الخوف الغبي الذي يصيب بعض البشر، فيتجاهلون ما يسمى بالخصوصية وحرية الاختيار، في أن أفتح باب شقتي اللعين لهم أم لا، يمتلئون بنرجسية وإحساس



بشع بأهميتهم، لا يجعلهم يفكرون أبدًا في أنك قد تتجاهلهم أو ترفض مقابلتهم عامدًا، أكيد أنت في ورطة، أنت ميت أو ستموت ما دُمتَ لا تفتح لي أو لا ترد عليَّ؛ لأنه لا يمكن أن ترفض طلعتي البهية وأنت في كامل صِحَّتك وقواك العقلية، حتى في هذا الوقت المتأخر من الليل، لا يمكن! وعلى هذا الأساس، يملأون الدنيا صراخًا وعويلًا يوقظ جميع الجيران، ويطلبون النجدة والشرطة والإسعاف والمطافئ إذا لزم الأمر، الشيء الذي سيحبط خطتي تمامًا إن حدث، وهو ما لا أريده، ما لا أريده على الإطلاق.

قررت النهوض أخيرًا، لأسير مترنحًا نحو الباب، أكاد أضحك من ثورتي الداخلية تجاه من لا يحترمون خصوصيتي، فهذه المرة، هذه المرة بالذات، سيكون قلق من يطرق بابي فلا أرد عليه، في محله فعلًا، بشكل لا أستطيع لومه عليه تمامًا. يضحكني كذلك حظي العثر الوفي الذي لازمني طوال حياتي، مانعًا الراحة عني، حتى هذه اللحظة، حتى وأنا أموت.

نظرت من العين السحرية فلم أرَ أحدًا، فأربكني هذا قليلًا، ثم عزوته للإضاءة الخافتة في الخارج، أو وقوف الطارق في بقعة عمياء، ثم وجدت نفسي أفتح الباب رغم كل مخاوفي وشكوكي، وكأنني مرغم أو مسلوب الإرادة.

- إزيك يا «يونس»؟

قالها الشاب الذي وقف على عتبة الباب باسمًا،



وإضاءة المدخل المعلقة فوقنا تزيد وجهه الأبيض وملابسه البيضاء، نصوعًا. بدا لي بوجهه الوسيم المريح مألوفًا بشكل ما، رغم أنني لا أعرفه، أو لا أذكره، الأمر الذي بدا عكسه على وجهه هو، وهو يعود ليقول:

- مش عارفني؟

شعرت أنني قليل الذوق جدًا، وأنا أتفحصه بعينين زائغتين، وأهز رأسي نفيًا بشرودٍ، ثم عدتُ لأتعجب من اهتمامي بأشياء كقلة الذوق الآن، وأتعجب كذلك من ابتسامته التي لم تفارق وجهه رغم قلة ذوقي، وهو يقول:

- ممكن أدخل؟

وجدتني أفسح له الطريق كالمسيَّر دون أن أدري لذلك سببًا. مرَّ بجواري وهو يدخل بثقةٍ، فشعرت وكأن له هالة تكاد تحتك بجسدي من قوتها، ورائحة عطر أخّاذٍ لم يصل أنفي أجمل منها في حياتي، تفوح منه، وتضيف إلى خدر رأسي خدرًا جديدًا، وأنا أتبعه كالمشدوه باتجاه غرفة مكتبي، التي لا أعرف بالضبط، كيف عرف موقعها بهذه الدقة.

دار بعينيه في الغرفة قليلًا بهدوءٍ كأنه يعرفها، وسار حتى توقف أمام المنضدة الصغيرة التي تحمل آثار ما فعلته منذ قليلٍ، ليقولَ دون أن يرفع عينيه نحوي:

- شكلك كنت مستنيني.

ظللت مشدوهًا من كل ما يفعل ويقول، بشكلٍ أعجزَني تمامًا عن الرد، وأنا أراه يجلس على أحد



المقاعد، ثم يرفَع عينيه إليّ، وابتسامته لا تزال ملتصقة بوجهه، وهو يقول:

- لسه مش عارفني يا «يونس»؟

هززت رأسي نفيًا ثانية، ليعود هو ويقول:

- أنا الموكّل بقبض روحك..

ثم أكمل:

- أنا ملك الموت..

****

هنا فقط، استجاب جسدي أخيرًا تحت وطأة الإشارات المنبعثة من عقلي بجنون، لأتراجع بظهري حتى أجلس على مقعدي ثانية، في مواجهة ذلك الشاب الغريب، وأنا أهتف بذهولٍ:

- إيه؟!!

- شايفك مستغرب.

- ما انا لازم أستغرب!

- من إيه؟

- من اللي انت بتقوله ده!!

- إنت مش طلبت الموت بنفسك ومستنيه؟ مستغرب ليه بقى؟

- .. إنت.. إنت عارف إني..؟!

- طبعًا عارف، أمَال جيت لك ليه؟

- بس إنت.. إنت شكلك إنسان عادي..

صمت قليلًا، قبل أن يقول:

- ماحبيتش أظهر لك في صورتي الحقيقة.. عشان



ماتتخضش.

اقشعر بدني وأنا أتراجع للخلف حتى اصطدم ظهري بمسند المقعد، وأنا أردد بذهول:

- لا لا.. الكلام ده مش حقيقي.. كل اللي بيحصل ده مش حقيقي.. أنا باهذي.. أنا أكيد باهذي..

- أنا عارف إن الموضوع صعب، بس حاول تتقبل نتيجة اختيارك، وحاول ماتضيعش الوقت في الذهول والانهيار، عشان مافاضلش كتير.

اتسعت عيناي وأنا أتمتم:

- مافاضلش كتير على إيه؟؟

- على اللحظة اللي هاسحب فيها روحك من جسمك، واللي من واجبي أحذرك إنها هتكون مؤلمة جدًا.

هززت رأسي بقوة في غير تصديق لكل هذا، وأنا أقول:

- لا لا لا.. إنت كداب! أنت نصاب!! أنا مش عارف إيه اللي خلاني أدخّلَك بيتي أصلًا؟!

- لو أنا فعلًا نصاب، تفتكر عرفت إزاي إنك انتحرت ومستني الموت؟

- ماعرفش، ومش عايز أعرف! ومن فضلك اخرج بره دلوقتي حالًا!!

- مش هينفع يا «يونس»..

- لأ هينفع! ولو ماخرجتش، أنا اللي هاخرَجك بنفسي!!

قلتها صارخًا وأنا أهب من مقعدي متجهًا نحوه في



هياجٍ، لأفاجَأ بنفسي وأنا أصطدم بالمقعد الخالي في ذهولٍ، فأتساءل بعقلي المشوش لثوانٍ، إن كان كل ما حدث، بدءًا من طرق الباب وحتى الآن، ليس إلا ألاعيب الكحول في رأسي، لأفاجأ ثانية بالصوت الهادئ آتيًا من خلفي، وهو يقول:

- قلت لك مش هينفع..

استدرت متسع العينين لأراه يقف هادئًا قرب المكتب، ورأسي يئنُّ من الألم والتساؤل عن الكيفية التي انتقل بها من هنا إلى هناك بهذه السرعة، ليرتجف جسدي كله وأنا أنكمش على نفسي خوفًا، في حين عاد هو يقول، بنفس هدوئه:

- لسه شايف إني نصاب؟

****

- ليه عملت كده يا («يونس»؟

كنت قد تمكنت، بشكل ما، من العودة إلى مقعدي، لأجلس عليه مرتجفًا، قبالة الشاب الذي ألقى سؤاله عليَّ، مطرقًا برأسي في خوفٍ وتعبٍ، وقد بدأت أشعر بتأثير الأقراص يسري في دمي، حتى صار تحريك لساني فحسب، أمرًا في غاية الصعوبة، ليعود الشاب ويسألني:

- ليه عملت في نفسك كده؟

تحركت شفتاي المرتجفتان دون أن تجدا ما تقولانه، ليعود هو ويقول:

- عشان انفصالك عن «سلوى»؟



أخيرًا تمكنت من النطق، لأقول:

- .. مش بس كده..

فيكمل:

- ديونك؟ وشغلك اللي هيرفدوك منه؟

صمت وقد كففت عن التعجب من الكيفية التي يعرف بها كل شيء عني، وهو يتابع:

- ولّا عشان مشاكل والدك العيان؟

- كل.. كل حاجة.. كل ده.. وحاجات.. تانية كتير.

- بس انت كده مش هتشوفهم تاني..

اخترقت جملته أذني، كأنني أدرِك معناها لأول مرة الليلة، فصمت وهو يُكمِل:

- مش هتشوف «سلوى» تاني، «سلوى» اللي انت ماحبتش حد في حياتك قدها، هيجيلها اكتئاب حاد وحياتها هتتدمر تمامًا. والدك اللي حرفيًا مالوش حد غيرك، ماحدش هيهتم بيه، ولا حتى يسأل عليه، وهتفضل حالته تتدهور لحد ما يموت هو كمان، بس بالبطيء.

اتسعت عيناي قليلًا من الصورة التي يرسمها، وهو يتابع:

- مع إنك لو صبرت شوية، كنت هتلاقيها هي اللي بتكلمك بكرة الصبح، وتطلب منك تسامحها وترجع لها كمان.

رفعت عيني إليه، متسائلًا بذهولٍ:

- هي مين؟!



- «سلوى»..

- بجد؟!!

- آه بجد. وماكنتش هتترفد من الشغل. بس خلاص، كل ده انتهى. اللي انت عملته ماعادش فيه منه رجعة خلاص.

شعرت بالعالم يتشوَّش في عيني، فلم أعرف إن كان بتأثير الكحول والأقراص، أم كلامه، أم الدموع التي وجدتها تملأ مُقلتيَّ دون أن أشعر، لأعود وأسمعه، وهو يقول:

- جاهز؟

رفعت عينيَّ المتسعتين نحوه، وأنا أهتف بضعفٍ:

- جاهز لإيه؟ لأ!

اقترب منّي كأنه لم يسمعني، وهو يعود ليقول:

- اتشاهد يا «يونس»..

صرخت بقدر ما استطاع حلقي، والدموع تتناثر من عيني:

- لأ لأ استنى لأ!!

- مش دي كانت رغبتك من البداية؟

- أنا غلطان.. أنا ندمان.. أنا مش عايز أموت!

- وقت الندم عدّى خلاص.

- أرجوك.. أبوس إيدك سيبني! سيبني وأنا مش هاعمل كده تاني.. اديني فرصة أخيرة.. فرصة أخيرة أرجوك!!

- مش بإيدي للأسف..



فرفعت يدي وعيني لأعلى، وأنا أصرخ باكيًا بانهيارٍ:

- يا رب! يا رب سامحني يا رب أنا مش عايز أموت! مش هاعمل كده تاني بس مش عايز أموت والنبي! مش عايز أمووووت!!

واصل اقترابه البطيء منّي، حتى وقف أمامي بالضبط، لأنهار تمامًا. صمّت صرخاتي أذني وأنا أخفي وجهي بيدي، كأنني أحمي نفسي أو أرغب في الاختفاء عنه. دخلت في حالة كالتشنج، شعرت فيها أنني أفقد سيطرتي على كل جزءٍ في جسدي، وكأن وعيي أو.. روحي تغيب عنّي، لأفزَعَ أكثر، وتعلو صرخاتي أكثر، فأسمعه أخيرًا بصعوبةٍ، وهو يقول:

- إهدا يا «يونس» إهدا!!

لكني لم أهدأ حتى طرقت أذني عبارته التالية، وهو يقول:

- أنا مش ملك الموت.

****

توقفت عن الصراخ وأنا أنزل يدي من على وجهي، ولا أعرف حتى كيف أشعر، وهو يكمل:

- أنا من الجن مش من الملايكة. أنا واحد من عمّار شقتك، عشت فيها يمكن أكتر ما عشت أنت نفسك فيها، عشان كده عارفك كويس، وشوفتك وأنت بتحاول الانتحار أكتر من مرة، لكن المرة دي حسيت إنها بجد، و.. ماقدرتش ماتدخلش، ماقدرتش رغم إني المفروض ماعملش كده، المفروض ماتدخلش أبدًا في العالم



بتاعكم، وعارف إني في الغالب هتإذي بسبب اللي عملته ده، لكن رغم كده لاقيت نفسي باتشكل في هيئة بشرية، وأعمل نفسي باخبط على بابك، عشان أعرف أقعد معاك وأكلمك.

كنت فاغر الفمِ وأنا أستمع إليه، وانتبهت في تلك اللحظة إلى تعبيرات وجههِ الجامدة التي لا تتغير، بشكلٍ غريبٍ غير بشريٍّ فعلًا، وإلى عينيه.. عينيه التي لاحظت الآن فحسب، ومع قربه الشديد منّي.. أنهما مشقوقتان بالطول كأعين القطط!

دار رأسي بعنفٍ، وشعور حارقٌ بالغثيان يبدأ فجأةً بداخلي، ويتصاعد بسرعةٍ رهيبةٍ، وهو يكمل:

- كنت عايز أساعدك، عايزك تفوق وتحس بتقل المصيبة اللي انت فيها عشان تلحق نفسك منها، وماتكررهاش تاني.

زاغت عيني، وزاد شعور الغثيان حتى شعرت أنني سأتقيأ بغتةً في أي لحظة، وهو يتابع:

- إلحق نفسك يا «يونس»..

شعرت بوعيي يزول عني، وبسائلٍ رغويٍّ يضغط على مؤخرة حلقي، ويسيل من بين شفتي رغمًا عني. شعرت أنني في سكرات الموت، لتفزعني الفكرة، ويخرج صوتي محشرجًا متقطعًا، وأنا أقول:

- الحـــ.. قني!

- إلحق إنت نفسك، أنا مش هاقدر أعمل لك حاجة.

ثم توترت عيناه وهو ينظر حوله، مكملًا:



- ولازم أمشي دلوقتي.

قالها وخرج بسرعة من الغرفة. أما أنا فلم أستطع إلا الارتجاف، والدعاء بلسانٍ ثقيلٍ ألا أموت، وأنا أبكي. لكن الدنيا ظلت تغيم أمام عيني، تاركة في نفسي شعور قوي بأني لن أراها ثانية أبدًا.

****

لكنني، لدهشتي، رأيتها!

فتحت عيني وكأنني أفيق من سباتٍ عميقٍ طويلٍ جدًا، لأجد أنني مازلت في غرفة المكتب، وإضاءة النهار الخافتة تتسلل من بين خصاص النافذة المغلق. اعتدلت شاعرًا بصحوة عجيبة، كأنني نمت نومًا عميقًا طويلًا كنت أحتاجه بشدة، جعلني خفيف الجسد، حادَّ الذهن والبصر إلى حدٍّ كبيرٍ لم أعهده في نفسي منذ مدةٍ طويلةٍ. ارتسمت ابتسامة خفيفة ممتنة على شفتي، وأنا أتطلع لمحتويات غرفة مكتبي بسعادةٍ بالغةٍ، شاعرًا بشوقٍ عجيبٍ لشقتي كلها، كأنني أرغب في احتضانها بعد فراقٍ طويلٍ. نهضت وأنا لا أكاد أصدق أنني أستطيع النهوض، وخرجت من المكتب لأدور في أنحاء الشقة وبين غرفها، وكأنني أتمم على كل ما فيها، وأتأكد أن كل شيء لا يزال في مكانه وكما هو، بلا تغيير. وبدت لي أحداث ليلة أمس كتاريخٍ مخيفٍ مضى وولّى بعيدًا، حتى تشوش واختلط ببعضه البعض، تاريخ لا أرغب في تذكره أو إعادته، ولو حتى داخل عقلي.

وعلى ذِكر الأمس، شعرت برغبةٍ عارمةٍ في جمع كل



آثاره، والتخلص منها نهائيًا، حتى أنني فكرت جديًا في الإقلاع عن شرب الكحوليات، الأمر الذي لم أتخيل أبدًا، أن يطرق حتى بالي فيما مضى، لكن كل ما يذكرني بتلك الواقعة أصبح يمثل لي شيئًا مفزعًا أرغب في وضعه خلف ظهري للأبد؛ لذلك اتجهت إلى غرفة المكتب، ولكنني.. لكنني وجدت نفسي أتوقف فجأةً مفكرًا، في الكيفية التي أشعر بها بكل هذه الخفة والحيوية، بعد كل ما شربته من كحول ليلة أمس؟! لأنني في العادة أصحو بعد ليال كهذه في حال كئيبة شديدة السوء، أترنح والصداع يمزق رأسي، ككل من يفيق من سكر شديد.

ثم إنني تذكرت شيئًا آخر، شيئًا لمحته بطرف عيني منذ قليلٍ، وأنا أمرُّ أمام المرآة الطويلة المعلقة في الصالة قرب المدخل، شيئًا لمحته أو.. للدقة، لم ألمحه، وأقنعت عقلي وقتها، وسط فورة فرحتي بنجاتي، أنني لم أنظر جيدًا، أو نظرت من زاويةٍ تسببت فيما رأيت، لأجد نفسي أعود ببطءٍ إلى نفس المرآة، وأقف أمامها تمامًا هذه المرة، لأتطلع إليها جيدًا.

وبالفعل، لم أجد في المرآة نفسها أي عيب على الإطلاق، وأنا أرى محتويات الصالة من خلفي منعكسةً بدقة على سطحها المصقول، أرى صورة كل شيء منعكسة في المرآة أمامي، فيما عدا شيء واحد فقط... أنا.

هنا فقط، وجدت نفسي أركض عائدًا لغرفة المكتب،



لأرى المشهد الذي لم أتخيله في أشنع كوابيسي على الإطلاق. رأيت نفسي لا أزال أجلس على مقعدي إياه، أو بمعنى أصح، رأيت على المقعد، جسدي المرتخي الساكن الذي لا يتحرك، وقد ازرق وجهه قليلًا، وتسمرت عيناه نصف المفتوحتين على وضعٍ واحدٍ مُخيفٍ، لا تتحركان ولا ترمشان.

باختصارٍ: رأيت نفسي ميتًا، رأيت جثتي بعيني، وفهمت كل شيء.

حاولت البكاء فلم أجد في عيني دموعًا، وصرخت فلم أسمع لصرختي صوتًا، لكني رغم ذلك صرخت ثانيًا، وثالثًا، حتى انشرخً حلقي من كثرة الصراخ.

ولا زلت أصرخ حتى الآن.

تمّت

****



- إنت.. بتكلمني أنا؟؟!
- أيوه أنت، هو فيه حد غيرك هنا؟!
- هو انت... هو انت شايفني؟!!!

****

في كل مرة يزور فيها أبي واحدة من القرى والنجوع، التي يدور عليها لتجميع المشغولات اليدوية التي يبيعها في محله الكبير بشارع «الخيامية» في القاهرة، يأخذني معه.. للأمانة، ليس كل مرةِ، بل في المرات التي تأتي وقت عطلتي الصيفية، التي تتوزع ما بين هذه الرحلات، وبين الوقوف معه في المحل نفسه، كي أساعده أولًا، لأنه كبر وتعب، وكي أتعلم ثانيًا، حتى أمسك بالعمل من بعده. وبهذا تصبح السنة كلها عناء بالنسبة لي، صيفًا وشتاءً، دراسةً وعطلةً.

ولماذا كل هذا؟ لأن أبي قرر هذا، كما قرر كل شيء في حياتي تقريبًا، حتى الكلية التي سألتحق بها مقررةً من الآن، ولن تكون الهندسة، التي أكاد أفقد بصري من كثرة المذاكرة كي ألتحق بها، طبعًا، بل التجارة، لكي تفيدني في عملي، الذي قرّره هو أيضًا لي، يعني تقريره لما ستكون عليه حياتي وصل حتى إلى هذا، حتى إنني لا أظنه سيترك لي حرية اختيار شريكة حياتي نفسها.

ولماذا كل هذا ثانيةً؟ لأنني ولده الوحيد، المدلل، كما يظن الناس، الفرخة بكشك عند أبيه، لأنه الذَّكَر الوحيد بين أبنائه. فلو تساءلَ هذا المدلل المميز، أو تأفَّف أو



اعترض على هذه التحكمات، لن يجد إلا تلك العبارة المحفوظة، المصوبة بعنايةٍ إلى رجولته، والتي يسمعها دائمًا من أبيه، ومين اللي هيمسك الشغل من بعدي؟؟ أمك والا أخواتك البنات؟!

اسمي «سيف».. هذه هي حياتي. وهذا هو ما جاء بي إلى كفر (بدير).

****

وفي كل مرة يزور فيها أبي كفر (بدير)، يزور كذلك ضريح سيدي (بدير). وهو، على حد قول أبي، ولي كان له كرامات عظيمة، بلغ من قوتها وكثرتها، أن تسمت القرية كلها باسمه. طبعًا أنا لا أعلم شيئًا عن هذا كله، لأنها المرة الأولى التي أزور الكفر فيها، وبصراحة أيضًا، لا أؤمن كثيرًا بهذا كله، الأولياء والبركة والأضرحة و.. وكل ما شابه. لكنني رغم ذلك، سرت خلف أبي مستسلمًا طبعًا، فأين سأذهب؟

دخلنا إلى منطقة، فهمت من منظرها أنها مقابر الكفر، لنسير في طريق طويل، رأيته من على بعد، ينتهي بمبنى صغير قديم، تعلوه قبة حال لونها. لست جبانًا ولا تسيء فهمي، لكنني حمدت الله في سري أننا ما زلنا في النهار. وتمالكت أعصابي لأتمتم بدعاء دخول المقابر والفاتحة، لأجد نفسي أتبعهما بالمعوذتين وآية الكرسي كذلك، ولا أدر لمَ.

اقتربنا من الضريح وخلعنا أحذيتنا ونحن ندخل إليه. ولا أنكر أن شعوري تغير قليلًا حين دخلت، حين شعرت



ببرودة المكان المنعشة، التي أنقذتني من قيظ الحرارة الرهيبة بالخارج، وحين تسللت إلى أنفي رائحة عطرية قوية، وانشغلت عيني بمشاهدة زخارف الحوائط الداخلية الباهتة التي تزينه، والباب الذي يؤدي، فيما أظن، إلى حجرة الدفن؟ أو المقام؟ لا أعرف ماذا يسمونها بالضبط، لأن القاعة التي دخلنا إليها خالية تقريبًا، ويبدو أنها تستخدم للصلاة فحسب.

لكن تطلعي للمكان انقطع حين ظهر أمامنا فجأة، كأنما من لا مكان، رجل طويل عريض حاد الملامح والنظرات، في زي داكن بسيط، مكون من جلباب وعباءة وعمامة، تبدو عليه الهيبة والفخامة رغم بساطة زيه، في يده مسبحة طويلة كبيرة الحبات، وتفوح منه رائحة عطر قوي، تشعر وكأنها تمتد مترًا خلفه ومترًا أمامه. وقد هش ذلك الرجل وبش حين رآنا، ليقترب من والدي محييًا إياه بحرارة، حياني بمثلها حين عرف أنني ابنه، وهو يضغط على يدي مصافحًا بكفه الكبيرة القوية، وأنا في حال من الدهشة المرتبكة التي رسمت على وجهي ابتسامة بلهاء، من هذا الغريب الذي يحييني بحرارة وأنا لا أعرف حتى من هو، لأفهم بعدها مباشرة، من حديث قصير دار بينه وبين أبي، أنه إمام المكان، وأنه يعرف أبي جيدًا على ما يبدو.

تقدمَنا داعيًا إلى الغرفة المجاورة كي نزور، ودخلنا كي يتعلق هو وأبي بمقصورة الدفن الفضية في المنتصف، ملصقان وجهيهما بمعدنها البارد الذي يفوح



برائحة عطرية قوية شديدة الجمال، وكأنها مصدر كل البرودة والرائحة الحلوة للمكان كله. لاحظت تمتمة أبي والإمام الخاشعة التي لا تنقطع، بأشياء لا أعرفها، وأنا أتمتم بالفاتحة ولا أعرف ما أزيد عليها في موقف كهذا، لأنشغل بعدها بالنظر حولي ومطالعة المكان، ونحن ندور حول المقصورة فيما يشبه الطواف. لاحظت بابًا آخر أصغر للمكان، يفضي إلى الخارج مباشرة. كما رأيت رجلًا في جلباب أزرق مهترئ متسخ، يجلس في أحد الأركان صامتًا. وجهه عابس محمر، كأنه كان يبكي، أو يقف في الشمس لفترة طويلة. يجلس وقد ضم ركبتيه إلى صدره متكورًا على نفسه، كأنه لا يرغب في إعاقة حركة السائرين حول المقام في الغرفة الضيقة، رغم أنه بدا حزينًا شاردًا وكأنه لا يرانا ولا نراه.

وحين انتهينا أخيرًا من الزيارة وعدنا إلى الغرفة المجاورة، ملت على أبي، هامسًا:

- بابا معاكش فكة؟

ليلتفت نحوي، متسائلًا:

- ليه؟

- عايز أدّي حاجة للراجل اللي جوه ده شكله غلبان، ومش معايا فكة خالص.

- راجل إيه؟

قالها بشيء من الاستنكار، لأقول أنا بشيء من نفاد الصبر:

- الراجل اللي كان قاعد جوه ده يا بابا.



كان صوتنا قد علا قليلًا ليصل إلى الإمام، الذي تطلع نحوي بهدوء، سائلًا بدوره:

- بتتكلم عن إيه يا «سيف»؟

نقلت بصري بينهما في مزيجٍ من الارتباك ونفاد الصبر، مشيرًا نحو الغرفة الأخرى، وهاتفًا:

- الراجل اللي كان لابس جلابية زرقا مقطعة وقاعد في الركن جوه ده!

تبادلا النظرات فيما بينهما، وقد بدا أبي على شيء من العصبية، في حين ظل الإمام هادئًا، وهو يقول:

- بس إحنا ماكانش فيه حد جوه غيرنا.

****

- لأ كان فيه!

قلتها بعد فترة من الصمت الذاهل القصير، بانفعال غير مصدق، خرج مني رغمًا عني، رغم خجلي وارتباكي من نظراتهما التي تحدق بي وكأنهما مصدومان، أو كأنني أبله أو مجنون. نظرات أبي كانت نارية أكثر، وهما يؤكدان لي ما يقولان، وكأنه يزجرني بها كي أصمت وأكف عن إحراجه، أما نظرات الإمام، فقد كانت أكثر هدوءًا ولينًا. والغريب أن نظرات الأخير ضايقتني أكثر، لأنها أشعرتني بحماقتي أكثر ربما، وكأنه يربت بها على كتف مجنون يسب ويركل لأنه يريد أن يتزوج هنُّومة.

- تلاقيه شحات ولّا مجذوب دخل من الباب اللي ورا.

جاءت العبارة بلهجة ريفية، من رجل بسيط الهيئة،



في جلبابٍ فاتحٍ متواضع، له ملامح طيبة تشي بشيء من السذاجة، وعلى عينيه نظارة طبية سميكة، وقد فهمت من الحديث التالي بين ثلاثتهم، أنه خادم المكان. ورغم منطقية ما يقوله نوعًا، والذي هدَأ من حدة الموقف فعلًا، ودفع بالحديث إلى اتجاهاتِ أخرى، إلا أنني لم أقتنع به كثيرًا،

وإن ابتلعت اعتراضي ذاك كي لا أؤزم الموقف ثانية، على أمرٍ لا أراه يستحق كل هذه الضجة فعلًا.

وبعد الحديث القصير بينهم، وما تلاه من تبادل للسلام، غادرنا أنا وأبي المكان صامتين. ورغم ذلك، فقد شعرت أن بداخل أبي، رغبة مكتومة في تعنيفي على ما حدث، كعادته في تعنيفي على أي شيء، وكل شيء. وبداخلي أنا، شفقة غريبة نحو ذلك الشحاذ، أو المجذوب كما سمُّوه، وتفسير مستفز، غريب كذلك، لكل ما فعله أبي حيال الموقف، وهو بخله، بخله الشديد الذي يمنعه من الاستجابة لأي سائلٍ رغم ثرائه. لكن أن يصل به الأمر إلى إنكار رؤية الرجل أساسًا، وإظهاري بمظهر المجنون أو المختل أمام الناس، فهذا ما لا يطاق ولا يُصدَّق فعلًا. ثم إنه.. لو كان لما فعله أبي تفسير، وإن كان مستفزًا غريبًا، فما الذي دفع الإمام لمجاراته فيما قال وفعل؟

****



في نهاية اليوم الطويل الشاق، استلقيت على ظهري في الظلام أخيرًا، على الفراش الواسع المريح، في القاعة الصيفي بمنزل الحاج «صبري»، أحد أرباب الحرف اليدوية في الكفر، وصديق أبي. ورغم كرهي لتلك الرحلة من أولها، إلا أنني لن أنكر أن الرجل كريم ومضياف بحق، وأن القاعة نظيفة ومريحة فعلًا، خاصةً مع نسائم الليل الرحيمة التي انبعثت، مع القليل جدًا من الضوء، من النافذة الكبيرة المواربة، ليتبدد شيء من الظلمة عن القاعة، وحر اليوم كله عن جسدي المكدود. أما الغريب في الأمر، فهو ذلك الأرق العجيب الذي هجم عليّ فجأة ومنعني من النوم، رغم إرهاقي الذي جعلني أظن أنني سأفقد الوعي فور رؤيتي لأي سطح أفقي، خاصة بعد الوليمة الشهية الرهيبة التي أقسم الحاج «صبري» علينا بالطلاق عدة مرات كي ننهيها، ولم نُنهِها بالطبع، لكن ما أكلناه منها كان كافيًا جدًا كي أشعر أنني امرأة في الشهر التاسع من حملها. فلماذا إذًا لا أنام؟!

ربما لتصلبي على الفراش، الذي أفسد راحته عليّ، للأسف، اضطراري إلى مشاركته مع أبي، ذي النوم الخفيف جدًا، والذي يكفي أن تتقلب، أو تحرك ساقك قليلًا، أو حتى تتنفس بصوتٍ عالٍ بجواره، كي تجده يطقطق بلسانه متذمرًا، ثم يزمجر طالبًا منك بعض الهدوء كي يتمكن من النوم. ربما لإحساسي بالغربة في المكان، الذي يسمونه.. تغيير الفرشة؟ ربما هو صوت خطوات الغفير الذي لم ينقطع عن الحركة جيئةً وذهابًا



أمام النافذة بالخارج، والذي تعجبت كيف ينام أبي بكل هذا العمق، مع خرفشة قدميه المستمرة الرتيبة على تراب الأرض.

كنا في الطابق الأرضي، لذلك كان الصوت قريبًا جدًا، وكانت النافذة في الحائط الواقع على يسار الفراش الذي نرقد فوقه، فكانت في مرمى بصري، لو درت إلى اليسار قليلًا. وقد بدا أن الرجل يدور حول المنزل كله بلا انقطاعٍ، فيمر أمام نافذتنا مع كل دورة. فكرت في إيقاظ أبي كي يطلب منه الابتعاد أو التخفيف من صوت خطواته قليلًا، وفكرت في القيام بالأمر بنفسي، رغم ما قد يجلبه شيءٌ كهذا على رأسي من توبيخ من أبي، لأنني أحرجه، كالعادة. فكرت وأنا أدير رأسي لليسار قليلًا، وأسمع صوت الخرفشة والخطوات تقترب، لأرى الرجل أخيرًا وهو يمر أمام النافذة في واحدة من دوراته، أمام عيني المتسعتين ذهولًا، الرجل الذي يرتدي جلبابًا كحليًا، ويحمل بندقية على كتفه، لكنه.. لا يحمل رأسًا فوق عنقه..!

****

- مافيش حاجة يا «سيف»، إنت كنت بتحلم!

قالها أبي بعصبية، من موقعه عند النافذة، التي نظر منها يمينًا ويسارًا وأمامًا وفي كل الاتجاهات، مؤكدًا أنه لا شيء ولا أحد هناك. كان ذلك بعد الشهقة العالية التي أطلقتها، وأنا أنتفض جالسًا في الفراش، إثر ما رأيت، ليصحو هو مفزوعًا مبلبلًا متذمرًا، يكاد يلكمني في



وجهي لأنني أيقظته بهذه الطريقة، ويكاد يقتلني لأنني ألححت عليه ضارعًا أن ينهض ليرى ما هناك، بعد أن حكيت له ما رأيت، بصوتٍ مبحوحٍ وكلمات متعثرة متكسرة، فهمها بصعوبة.

وبنفس الصوت والتلعثم، أقسمت له إنني لم أكن أحلم، بل إنني لم أنَم أصلًا، لكنه لم يصدقني بالطبع، أو لم يعبأ بي ربما، ليعود ويندس في الفراش إلى جواري بعصبية غاضبة، بعد أن أحكم إغلاق النافذة، التي أقسمت له ثانية، إنني لن أنام، ولن أتركه ينام، لو تركها مفتوحة. أردت أن أطلب النوم ونور القاعة مضاء كذلك، لكنني خشيت من غضبته لو طلبت أمرًا كهذا، فيكفيني تهديدي له، الذي لا أعرف أصلًا كيف تغاضى عنه، بعدم تركي له كي ينام لو لم يغلق النافذة. نعم أنا أخشاه لهذه الدرجة، لدرجة أنني سأبتلع جزءًا من خوفي، خوفًا منه. سأتحمل الحر الناتج عن إغلاق النافذة، وأدعو الله أن يتحمله هو الآخر، فلا ينهض مصرًا على فتح النافذة من جديدٍ.

ارتجف قلبي وأنا أقرأ كل ما أحفظه من القرآن في سري، وأدير جسدي على جانبي الأيسر موليًا ظهري لأبي، ومعلقًا بصري بموضع النافذة، الذي صرت أراه بصعوبة في الظلام شبه التام. أشعر بتقلب أبي العصبي وتنفسه الثقيل وتذمراته الخفيضة خلف ظهري، وأتأرجح ما بين خوفي من غضبه المكتوم، وما تبثه حركاته وصوته من بعض الطمأنينة في قلبي، ومشهد



الرجل مقطوع الرأس، لا يبرح مخيلتي.

****

لم أنم تقريبًا تلك الليلة. ظللت متيقظًا حتى سمعت أذان الفجر، ثم رأيت بعضًا من ضوء النهار يتسلل من بين خصاص النافذة، عندها فقط أغمضت عيني قليلًا، وإن شعرت ببقية حواسي منتبهةً تمامًا، كأنني في حالٍ متوسطةٍ بين اليقظة والنوم، حتى شعرت بأبي يوقظني أخيرًا، لأفتح عيني على الفور، كأنني لم أنم على الإطلاق. كان على شيء من العصبية، فرجحت أنه لم ينم جيدًا هو الآخر، لكنه بدا في حالٍ أفضل بقليل منِّي، فرجحت أنه حظي ببعض النوم على الأقل.

اغتسلنا وفطرنا على مائدة الحاج «صبري»، التي لم تَقِل عظمةً عن مائدة العشاء، وخرجنا لنبدأ يومًا جديدًا من الشقاء. كل هذا وأنا صامت شارد شبه ذاهل طوال الوقت، أحاول إبعاد عقلي عن أحداث الأمس، التي تصر على تكرار نفسها كنوع من الحلم أو الذكرى أمام عيني، فلا أكاد أرى أو أشعر بأي شيء حولي أو أمامي.

في منتصف اليوم، كان التعب قد بلغ من كلينا مبلغه، فجلسنا نستريح في مقهى بسيط مفتوح، كلانا يشرب الشاي، وأبي يدخن. حاولت التركيز على صوت رشفاتنا من الكوبين الزجاجيين، على قدمي النابضتين بالألم داخل حذائي، على المناضد والكراسي المحيطة بنا، والجالسين إليها، بين من يشرب شايًا أو يدخِّن الشيشة. أحاول إبعاد عقلي عن أي شيء آخر. أحاول ملء



حواسي بما يشغلها كي أنسى كل ما حدث. وبدا لي أنني نسيت بالفعل، وأنا أتطلع خفية وبشغف، لعلبة سجائر أبي المغربية على المنضدة بيننا. أفكر في طريقة تتيح لي سحب واحدة، وليس أكثر، كعادتي، دون أن ينتبه. أمنّي نفسي ببضعة أنفاس أسرقها منها، وتسرقني من الضجة حولي وداخل عقلي. هي ما ينقصني كي أنسى كل شيء عن الأمس، وما حدث بالأمس، بل كي أموت سعيدًا مرتاح البال. ولم أصدّق نفسي حين اتيحت لي الفرصة بأسرع مما تخيلت، حين مرّ بجوارنا رجل، التفت له أبي ونهض يصافحه ويتبادل معه أطراف الحديث، منشغلًا عنّي، لأسحب السيجارة الحبيبة، وأدسها في جيب قميصي بسرعة وخفة يد كالنشالين، حالما باللحظة التي أتمكن فيها من الاختلاء بها، فأنتشي حتى قبل أن أدسها بين شفتي. أما أبي، فقد أنهى حديثه مع الرجل، وعاد كي يجرع ما تبقى من شايه على مرةً واحدةً وهو واقف، ثم يعلن عن انتهاء الراحة لأنهض مستسلمًا، وبداخلي تذمر، لا يخففه إلا إحساسي بالسيجارة الملامسة لصدري.

وبعد عدة ساعاتٍ أخرى من اللف والدوران، والمناقشات والمفاوضات، حلّ علينا التعب ثانيةً، وكنا قريبين من منطقة المقابر، فقرر أبي أن نَمرّ على المقام، فنسلّم ونقرأ الفاتحة ونرتاح قليلًا. وفعلًا ذهبنا، ومررنا على طريق المقابر الطويل الذي لا أرتاح كثيرًا للسير فيه، فأحاول دائمًا مجاراة خطوات أبي الأسرع منّي،



رغم سنه الأكبر، كي أظل ملتصقًا به، وأنا أتلفت يمينًا ويسارًا بتوجُسٍ بين شواهد القبور، وأحسب في رأسي، من الآن، حساب رحلة العودة فيه، والتي، حتمًا، ستكون مساءً هذه المرة.

وصلنا أخيرًا وأنا ألتقط أنفاسي، كأنني كنت أعدو، وقد كنت أعدو بالفعل، فخطوات أبي غير طبيعية في سرعتها. وبعد المرور على الطقوس نفسها، من التحايا والسلامات وقراءة الفاتحة والدعاء، عدنا إلى القاعة الرئيسية لنجلس أرضًا قرب الجدار، أنا وأبي والإمام. وتكاتفت قلة نومي مع تعب اليوم والاسترخاء المفاجئ، عليّ، لأشعر ببرودة وخدر غريب يسري في جسدي وروحي فور جلوسي، وأجد رأسي يترنح للخلف رغمًا عني، فأسنده على الحائط البارد خلفي، مقاومًا رغبة عارمة في إطباق جفني والنوم هنا للأبد.

كان أبي والإمام يتحدثان، وكنت أنا أقاوم رغبة النوم، حين انتبهت حواسي فجأةً، إثر وصول بعض الزائرين إلى المكان. مجموعة صغيرة مكونة من رجل وامرأتين، ورغمًا عني تذكرت الموقف السابق، وكدت أهتف بأبي والإمام سائلًا إياهما، إن كانا يريان هؤلاء، أم أنه خيالي هذه المرة أيضًا. لكنني هدأت أخيرًا حين وجدت الرجل يحادث الخادم عقب انتهاء زيارتهم، ويبدو وكأنه ينفحه شيئًا من المال، وهم يغادرون. وبدا وكأنني كنت أحتاج لمشهد كهذا، كي أستعيد القليل من ثباتي النفسي، وثقتي في قدراتي العقلية، التي بدا لي



وكأن كفر (بدين) كله عازم على تجريدي منها، منذ أتيت إليه. ومع استعادتي لذلك الجزء اليسير من سلامي النفسي، شعرت بمقاومتي للنوم وهي تضعف تدريجيًا، لأغلق عيني بالفعل، وأشعر بوعيي وهو ينساب عنّي باستكانة وهدوء.

****

حين فتحت عيني ثانية، فتحتهما على اتساعهما، فقد كانت السماء على وشك الإظلام التام، وكذلك المقام كله. أما الأغرب من هذا كله، فهو أنني كنت وحدي تمامًا، أبي والإمام ليسا على يميني حيث رأيتهما آخر مرة يتحادثان قبيل نومي، الخادم لا يجيءُ ولا يروح قائمًا بمهامه، لا زائرين، أضواء المقام غير مضاءة، فقط أبوابه مفتوحة، يتسلل منها آخر شعاع شمس في السماء؛ لذا، فقد وجدت نفسي أنهض واقفًا، في تخبُّطٍ ما بين اللهفة والحذر، وأسير نحو غرفة المقام أتفحصها أولًا، لأجدها خاليةً تمامًا، ومن ثم أعود أدراجي نحو القاعة الرئيسية، وأقف على مدخلها أنظر خارجًا، لا أحد، لا شيء سوى شواهد القبور التي بدت كئيبة مخيفة للغاية في هذه الإضاءة.

ابتلعت ريقي الذي لم أجده في فمي الذي جف تمامًا، وأنا غير فاهم لكل هذا. أتخبط ما بين الخوف والغضب. أين ذهب الجميع؟؟ كيف تركني أبي هكذا؟! ما الذي يحدث بالضبط؟؟! ارتديت حذائي وأنا لا أعرف ماذا أفعل وأين أذهب؟ وفجأة، لمحت من على بعد، ثلاثة



أشخاص يقفون بين شواهد القبور، بدوا كالأشباح في الإضاءة الضعيفة الخافتة، لكنني قدرت أنهم ولا بُدّ، أبي والإمام والخادم، ليتزايد إحساس الحنق بداخلي نحو أبي بالذات. ما الذي يفعلونه هناك؟ من الذي يزورونه؟ بل من الميت الذي يعرفه أبي بين سكان الكفر كي يزور قبره؟؟ وكيف يتركني نائمًا هكذا في مكانٍ غريبٍ كي يفعل أي شيء أصلًا؟!

تركت المدخل لأسير بين المقابر نحو الأشباح الثلاثة، ودقّات قلبي تتعالى، فلا أعرف إن كنت غاضبًا أم خائفًا. فكرت في مناداة أبي بصوتٍ عالٍ كي ينتبه إليّ، لكني شعرت بطفولية الفكرة، ثم إنني شعرت أنه لا صوت على الإطلاق في حلقي الجاف كي أنادي به على أي أحدٍ. سرت نحوهم حانقًا صامتًا، وقدماي تغوصان في رمال الأرض التي تعيق حركتي، وتجعلها بطيئة بشكلٍ لا يصدق، حتى إنني شعرت أنني لا أقترب منهم على الإطلاق، لكنني كنت أقترب، تدريجيًا وببطءٍ، لكنني أقترب، أتحاشى النظر نحو الشواهد المحيطة بي من كل جانب، وأنظر لقدمي وكأنني أحثهما على الإسراع، أعد في رأسي محاضرة لوم كبيرة لأبي كي ألقيها على مسامعه فور رؤيته، أنفاسي تتلاحق، والإضاءة تزداد خفوتًا، لكنني أقترب.

في الأحلام، تتثاقل الخطوات وكأن الرمال تعوقها، لكنني أسير على الرمال فعلًا، ولا أحلم للأسف، لكم تمنيت أن يكون هذا حلمًا، لكم تمنيت هذا حين رفعت



عيني فجأة، وكنت قد اقتربت كثيرًا من الأجساد الثلاثة، لأتبين أخيرًا، السبب الذي جعلني أراهم كأشباح من على بُعدٍ، إنهم.. فعلًا أشباح! ثلاثة أجساد متدثرة، من الرأس وحتى القدمين، بقماشٍ أبيض يشبه.. يشبه أقمشة الكفن!!

لكن أسوأ ما في الأمر، كان انتباه تلك الأجساد لي، التفاتهم نحوي، بوجوههم المغطاة التي لا أراها، لأتسمر في مكاني تمامًا، لبضع ثوانٍ أم لربع ساعة كاملة؟ لا أعرف، لا أعرف حقًا، لكنني أعرف أن عقلي وجسدي عادا أخيرًا للعمل، لأتراجع بظهري فاغر الفم، متسع العينين، بضعة سنتيمترات أم مترين كاملين؟ لا أعرف أيضًا، لكنني استدرت فجأةً مطلقًا ساقي للريح، وهو تعبيرٌ مجازيٌ جدًا، مع الرمال التي بدت وكأنها تبتلع قدمي مع كل خطوة، لكنني لم أعبأ بها، ركضت سريعًا جدًا وكأنني أتحداها، لم أنظر خلفي حتى، لم أرغب في رؤية ما يحدث خلفي، ركضت كما لم أركض من قبل، حتى شعرت وكأن قلبي سيثب حرفيًا من صدري، كي يسقط أمامي على الرمال، وربما ما كنت لأنتبه له أو أعبأ به حتى، لو حدثَ هذا فعلًا.

تعلقت عيناي بالمقام الذي راح يقترب وأنا أركض، المقام الذي بدا لي كملاذٍ مُنقذٍ مما أنا فيه. وصلت أخيرًا وأنا أتنفس بصعوبة بالغة، وأطرافي في حال مخيفة من التشنج، جعلتها تهتز وتنتفض من تلقاء نفسها، حتى أنني لم أفكر أصلًا في خلع حذائي على الباب،



بل وتعثرت في حاجز المدخل القصير، كي أسقط بالداخل دون أن أشعر بأي ألم على الإطلاق، لكنني شعرت بكفين قويتين تمسكان بكتفي فجأة، لأصرخ دونما صوت، فتخرج الصرخة على هيئة شهقة عالية، أوشكت معها على فقدان الوعي، ودخلت في حال سيئة من الهياج العصبي، جعلت جسدي كله ينتفض بجنون، حتى تبينت أخيرًا أن صاحب الكفين يكلمني، وأنه يهتف قائلًا:

- «سيف»! إهدا يا «سيف»، إهدا!!!

رفعت رأسي نحوه حين تبينت صوته أخيرًا، الإمام، يحاول تهدئتي، ويسألني عما أصابني، والقلق يغزو وجهه. لم أسأله أين كانوا، لم أسأله حتى عن أبي، فقط تلعثمت بالكلمات بين لهاثي، وأنا أقول:

- المقابر.. أموات.. أموات بالكفن.. هناك.. أموات..!!!

- إهدا يابني وفهمني إيه اللي حصل بالظبط؟

التفتُّ خائفًا للخلف، مشيرًا نحو البقعة التي رأيت فيها أصحاب الأكفان الثلاثة، وأنا أعيد كلماتي المبعثرة عليه، لكنني.. حين عدت ببصري إليه، كان وجهه هو مختلفًا، كأنه شاحب أو شديد البياض، وعينه.. عينه بدت أكثر اتساعًا، بل بدت وكأنها تتسع أمام عيني في كل لحظة، حتى بدت كبيرة للغاية، كبيرة بشكل غير آدمي، ومن ركنها تقطر الدماء، ومن بين شفتيه أيضًا



تتقاطر الدماء! هنا عجز جهازي العصبي عن الفهم أو التعامل، عن التملص منه، أو حتى عن الصراخ، لينطفئ وعيي فجأة، وتمامًا، رغمًا عني.

****

حين فتحت عيني تلك المرة، ووجدت وجه الإمام أمامي ثانيةً، صرخت.. صرخت وانتفضت وركلت كأنني مجنونٌ، ولم يهدأ من روعي قليلًا، إلا رؤيتي لوجه أبي من خلفه، ووجه الخادم كذلك، ثم انتباه عقلي لوجودي داخل المقام حيث نمت، مستندًا للجدار. المساء قد هبط فعلًا، ومصابيح المقام مضاءة، وجميعهم حولي جزعون قلقون، والأهم من ذلك كله، طبيعيون. أكان كل هذا حلمًا فعلًا؟ رباه! لم يبد لي كذلك على الإطلاق.

- كلنا بنحس إن الأحلام حقيقة وإحنا بنعيشها.

كانت تلك من الإمام، الذي لا أعرف كيف عرف ما أفكر فيه، فأنا لم أنبس ببنت شفة عما يدور في رأسي، فقط صحوت صارخًا أمامهم، الأمر الذي يرجح فعلًا أنني كنت أعاني من كابوس ما، ويجعل ما يقوله منطقيًا ومهدئًا إلى حدٍّ كبيرٍ، لكن.. لا، لا أعرف لما شعرت وكأنه يقرأ أفكاري، وهو ينظر في عيني بعينيه الحادتين، ولا أعرف لم لا أشعر بالراحة تجاه هذا الرجل.

****

في طريق عودتنا، أنا وأبي، إلى منزل الحاج «صبري»، وجدت نفسي بعد صمت طويل، أهتف فجأة:

- بابا أنا عايز أمشي من هنا.



- تمشي منين؟

- من الكفر، من المكان ده كله. مش عايز أقعد هنا تاني.

- ليه إيه اللي حصل؟

تسلل شيء من الغضب إلى صوتي، رغمًا عني، وأنا أقول:

- إيه اللي حصل؟! كل ده يا بابا وتقول لي إيه اللي حصل؟!!

ليتسلل الغضب إلى صوته هو أيضًا، وهو يقول:

- إنت اللي عامل فيَّا وفي نفسك كل ده. قلَقت نومي وأحرجتني قدام الناس عشان شوية كوابيس، مابقتش عارف أصلًا إنت بتشوفهم فعلًا، ولًا بتمثل كل ده!

زاد على غضبي الاستنكار، وأنا أقول:

- أمثل؟!!

ليقول هو بلهجة قاطعة:

- اسمع يا «سيف»، إحنا مش هنمشي من هنا قبل ما نخلص اللي ورانا، وده آخر كلام عندي

- يا بابا أنا مش مرتاح للمكان ده بجد

- إنت مابترتاحش لأي حاجة فيها شغل.

- لأ، أنا أول مرة يحصل لي كده.

- يحصل لك إيه؟! الحكاية كلها شوية كوابيس.

- واشمعنى الكوابيس دي بتجي لي هنا بالذات؟ إشمعنى؟؟!

****



في اليوم التالي، كنت جالسًا في ذلك المقهى المفتوح وحدي، بعد أن تركني أبي فيه، ليقوم هو ببعض الأعمال وحده، لا أعرف إن كان ذلك كي يريحني أو يُريح أعصابي قليلًا، أم كي يريح نفسه هو منّي، بعد كل ما سبّبته له من مشاكل، حين طرق مسامعي ذلك الحوار الغريب. حوار أتى من خلفي مباشرةً، من منضدة بدت قريبةً للغاية، محتدم وإن حرص طرفاه على خفض صوتيهما. وقد بررت لنفسي الإنصات له خلسة، أخلاقيًا، باعتبار أنني لم أسع لذلك، وإنما هو الذي صك مسامعي من تلقاء نفسه، ولفت موضوعه انتباهي إلى حدٍّ كبيرٍ، رغمًا عني.

- اسمع اللي باقول لك عليه، المفروض ماحدش يروح المكان ده أصلًا، ولا يتبرك بيه.

- ليه؟

- إنت عارف مين اللي مدفون هناك؟

- سيدي (بدير)..

- لأ..

- لأ إزاي؟

- لأ لأن مافيش حد مدفون أصلًا، الضريح فاضي.

ازداد انتباهي، وعيناي تتسعان، وأنا أكمل الاستماع.

- فاضي؟!

- آه فاضي

- أمّال هو مبني ليه أصلًا؟! اتبنى على إيه من الأساس؟؟



- مش هتلاقي حد عارف إجابة السؤال ده. كل جيل بيقول إنه من ساعة ما وِعي على الدنيا، والضريح موجود، وإن الجيل اللي قبله بيقول نفس الكلام. ماحدش عارف للضريح الغريب ده أساس أو تاريخ. الشئ الوحيد المؤكد، إن حكاية الولي اللي اسمه (بدير) ده، مالهاش أي أساس من الصحة، والدليل على كده، اسم بلدنا نفسه.

- تقصد إيه؟

- هي بلدنا دي اسمها إيه؟

- كفر (بدير)..

- عارف كفر (بدير) دي كانت إيه؟ متحرفة عن إيه؟

- إيه؟

- كفر (الدير)، نسبة لدير قديم، كان موجود هنا زمان قوي واتهد، يعني (بدير) ده، مالوش أي وجود من الأساس.

اتسعت عيناي وأنا أشعر بالكلام وكأنه يصدمني في ظهري فعليًا، حتى إنني عجزت عن الإنصات خلسةً أكثر من ذلك، لأجدني أستدير فجأةً، رغمًا عني، إلى الخلف، فقط، لتتسع عيناي أكثر وأكثر، وأنا مصدوم فاغر الفم. فقد كانت المنضدة الواقعة خلفي، خالية من أي زبائن، خالية من أي شخص على الإطلاق!

****

مستحيل! الفاصل الزمني بين آخر كلمة سمعتها في الحوار، والتفاتتي للخلف، كان ثانية واحدة، ثانية



واحدة فحسب!! وهذه الثانية، لا تكفي أبدًا كي ينهض رجلان من مكانهما، ويغادران ويبتعدان، فأين ذهبا إذًا؟ وكيف ظهرا من الأساس؟! بل كيف سمعت صوتيهما وهما يتحدثان أصلًا؟!!

ظللت أنظر حولي كالمجنون، وكأنني أبحث عنهما، وكأنني سأعرف شكلهما مثلًا لو رأيتهما! ما هذا الجنون؟! لن أستطيع تعليق هذا الجنون على شماعة شخص يخدعني هذه المرة، لا أبي ولا الإمام ولا الخادم، ولا أي شخص على الإطلاق. ما يثير جنوني هذه المرة، هي حواسي نفسها، فإما أن أذني قد خدعتاني فيما سمعت، أو أن عيني تخدعانني فيما لا أرى!

أردت أن أهدأ، أن أشغل نفسي بأي شيء آخر، مقنعًا عقلي أن الرجلين نهضا بسرعة الصوت، أنهما كانا واقفين في الأساس، فمشيا سريعًا وحسب، أن أي شيء منطقي أدى إلى هذا كله، كي لا أجن. هنا تذكرت السيجارة التي لا تزال معي، ولم أدخنها حتى الآن. فكرت فيها كمهدئ وشاغل لا بأس به لعقلي، كما فكرت أنني أريد تدخينها قبل أن يعود أبي، فلا تظل يومًا إضافيًا، قد يفضح أمرها، معي. نهضت أتحسسها في جيبي، وأنا أبحث عن مكانٍ يصلح للاختفاء عن الأعين، في حالة ما إذا عاد أبي فجأة، حتى وجدته أخيرًا خلف المقهى، موضع هادئ معزول بعض الشيء عما حوله، تحت شجرة كبيرة قديمة، سرت نحوها وأنا أتلفت



حولي خوفًا من ظهور مفاجئ لأبي، ثم أخرجت السيجارة ودسَستُها بين شفتي، فقط لأفطن إلى غبائي اللا معقول، وأنا أتحسس بقية جيوبي بحثًا عن قداحة أو كبريت، فلا أجد بالطبع. ظللت ألعن نفسي لفترة، حتى انتبهت أخيرًا إلى رجلٍ جالسٍ على الأرض، على مسافة غير بعيدة منّي، موليًا ظهره لي، لأتقدم نحوه في حذرٍ، وأنا أدعو الله ألا يكون من معارف أبي، وأناديه:

- يا.. يا أخ.. اذا سمحت يا...

ظل صامتًا وكأنه لا يسمعني، أو لا يعبأ بي، لأقترب منه أكثر، حتى أقف خلفه مباشرة، وأنا أعيد ندائي:

- يا أخ.. يا أخ لو سمحت..

هنا التفت لي ببطءٍ، لأرى على وجهه نظرة غريبة، تجمع ما بين الدهشة والاستنكار، وهو يقول بما يشبه الذهول:

- إنت بتكلمني أنا؟؟!

- أيوه إنت، هو فيه حد غيرك هنا؟!

- هو انت... هو انت شايفني؟!!!

لم أعرف كيف أرد، وفي قدرات من العقلية أشك هذه المرة! أنا أم هو؟! أما هو، فقد نهض والدهشة لا تزال تعلو وجهه، وقد أضيف إليها تعبير آخر غريب، السعادة، السعادة التي راحت تغزو وجهه حتى ملأته تمامًا، وهو يتراجع بظهره، هاتفًا:

- يا فرج الله! يا فرج الله!!



وفجأة استدار، وراح يعدو بسرعة كبيرة، حتى اختفى عن ناظري، وهو لا ينقطع عن تكرار هتافه العجيب.

****

ظللت واقفًا في مكاني، لا أكاد أفهم ما يحدث، لا أكاد أفيق من صدمة أو موقف غريب، حتى يعاجلني آخر. أفقت أخيرًا على رسالة نصية من أبي، على هاتفي المحمول، تقول:

(فيه حضرة هتتعمل في سيدي بدير بعد المغرب، وأنا هاحضرها، قابلني هناك)

أعدت الهاتف إلى جيبي، وأنا لا أعرف كيف أشعر حتى، تجاه هذا كله، لكنني استسلمت كالعادة، واتخذت طريقي نحو المقام، فقد سئمت من الجلوس في المقهى على كل حال. وصلت بسرعةٍ خرافيةٍ لأنني كنت أعدو تقريبًا، في طريق المقابر، أعدو ولا أكاد أنظر يمينًا أو يسارًا، وكأنني أريد أن أطويه طيًا، ولا أرى أو أسمع أو أشعر بأي شيء فيه، ورغم ذلك، فقد وصلت بعد بدء الحضرة، إذ كانت صفوف من الرجال المنشدين المتمايلين قد تكونت، وقد لمحت من بينهم أبي. لم يكن يهمني في أي وقت أصل بصراحة، المهم أنني وصلت. خلعت حذائي وسرت خلف الصفوف محاذيًا للجدار، حتى وصلت للموضع الذي نمت فيه سابقًا، وجلست على الأرض متربعًا، بين بضعة جالسين آخرين. تصورت أن أبي قد يرغب في أن أشارك في الذكر، لكنني لم أرد



ولم أهتم أيضًا بصراحة، كنت أشعر أن عقلي وروحي، بعد كل ما حدث، أثقل بكثير، من قدرتي على فعل أي شيء، أثقل حتى من التفكير في أي شيء.

ولن أنكر، للأمانة، أن جوَّ الحضرة والذكر، كان له تأثير غريب عليَّ، تأثير مريح راح ينتشلني تدريجيًا من كل ما أنا فيه، بل من الدنيا بأسرها، كأنه تنويم مغناطيسي يسحبني معه، لأجد رأسي يثقل ثانية، فأسنده على الجدار خلفي، وأنا أشعر أنني في حالٍ غريبةٍ، ما بين اليقظة والنوم. وخُيِّل إليَّ للحظة، أنني قد نمت بالفعل. أغلقت عيني، وشعرت أنني أطير في الهواء، لأفتحمها ثانية، وأفاجأ بأنني أطير بالفعل! كأنني أطفو فوق رؤوس الحاضرين، حتى أكاد أقترب من سقف الضريح.

فزعت وأنا أشعر أنني سأسقط فجأةً، لكنني لم أفعل. وتعجبت كيف أن أحدًا من الموجودين لم يرني وأنا معلَّقٌ هكذا في الهواء، فقدرت أنني أحلم، لكنني حين نظرت مليًا إلى أسفل، وجدت أنني أرى أبي بوضوحٍ بين المنشدين، بل وأراني! أراني أنا نفسي حيث جلست متربعًا على الأرض، مسندًا رأسي إلى الجدار.

وفجأةً، أظلم المكان كله، كأن التيار الكهربائي قد انقطع فجأة، لأفزع أكثر، وأنا أشعر أنني أسبح في فراغٍ مخيفٍ بلا إضاءة ولا أبعاد. لكن الضوء عاد ثانية لينير المكان، الذي لا أعرف كيف تغير حاله فجأة في هذه الومضة السريعة، فقد كان خاليًا، خاليًا تمامًا، لا أثر فيه



لحضرة أو لذاكرين.

ثم إنني وجدت نفسي أتحرك طافيًا، سابحًا في الهواء، من قاعة الصلاة، إلى قاعة المقام، التي لم تكن خالية، بل كان فيها أغرب مشهد يمكن تصوره على الإطلاق.

كانت هناك جثة، جثة ميت ملفوفة بكفن، ممدة على الأرض قرب الجدار، وإلى جوارها انحنى رجل، لا أرى ملامحه من هذا الارتفاع، لكنني أرى ملابسه الداكنة التي تدثر بها تمامًا، حتى كادت تخفي وجهه نفسه. رأيته وهو يزيح جزءًا من البساط المفروش على الأرضية، ما بين المقصورة والجدار، ويرفع بضع بلاطات من الأرضية نفسها، بدت وكأنها غير مثبتتة في مكانها، ثم يزيح بيده طبقة من الرمال، ظهرت من أسفلها أرض صخرية، فيها ما يشبه بابًا لسرداب، فتحه، لتظهر من أسفله درجات سلم منحوتة في الصخر، تهبط إلى ظلام، لم أستطع أن أتبين مدى عمقه. رأيت الرجل وهو يحمل الجسد الساكن المكفن، بشيء من الصعوبة، ثم يهبط به على الدرجات الصخرية نحو الظلام الكثيف المخيف. هنا عاد المشهد ليظلم كله ثانية أمام عيني، لثانية واحدة، عادت بعدها الإضاءة، وقد عاد كل شيءٍ كما كان، الحضرة والذاكرين، وأنا، حيث جلست متربعًا على الأرض، مسندًا رأسي إلى الجدار.

****



مضيت في طريق العودة مع أبي، وأنا شاردٌ، لدرجة أنني نسيت أن أخاف، ذاهل حتى عن الظلام الذي يحوطنا، والمقابر التي تحدنا من الجانبين. لا أفكر إلا في قَطْعِ تلك الأحجية الغريبة التي تتساقط على رأسي تِباعًا، فلا أعرف لها حلًا، ولا حتى نظامًا أو ترتيبًا. رجل لا يراه سواي، وآخر يسير وهو مقطوع الرأس، وأيضًا لا يراه سواي. حلم أرى فيه أجسادًا مكفنة، تسير بين المقابر كالأحياء، وإمامًا مخيفًا مريبًا. ضريحًا خاليًا، لولي لا وجود له. تجربة خروج عجيبة من الجسد، لا مسبب واضح أو منطقي لها، أرى فيها رجل يهبط بجثة مكفنة، أسفل الضريح الخالي، للولي الذي لا وجود له. ما هذا؟! ما كل هذا؟!! كيف يتفق كل هذا مع بعضه البعض؟ ما الصورة أو الفكرة أو القصة التي يكونها بالضبط؟ وما هو المطلوب مني حيال كل هذا؟ بل لماذا يحدث لي، أنا بالذات، كل هذا؟!

ظل عقلي يئز خائفًا متخبطًا، مغيبًا لي عن كل ما حولي، حتى ارتميت أخيرًا بجوار أبي، ككل ليلة، في ظلام شبه تام، على فراش القاعة الصيفي في منزل الحاج «صبري»، وأنا لا أعرف كيف سيمر عليَّ الليل بعد هذا كله، كيف سأنام، بل كيف سيغمض لي جفن أصلًا، ما بقي لي من الحياة.

****

لكنني، لدهشتي، نمت. لا بُدَّ وأنني نمت، لأنني استيقظت فجأةً خلال الليل، وأنا أشعر بحرارة خانقة،



لم أدر لها سببًا في البداية، حتى تبينت الملاءة التي لا بُدَّ وأنني غطيت بها جسدي كله، حتى رأسي، وأنا نائم، دون أن أشعر، لأدفعها متأففًا عن وجهي، متسائلًا بداخلي عن السبب الذي دفعني لتغطية جسدي في هذا الحَرِّ من الأساس، أنا الذي لا أطيق الحر ولا أتحمله، بل عن الكيفية التي ظهرت بها هذه الملاءة أصلًا من العدم، وأنا متأكِّدٌ أنني لم أغط نفسي بها، ولم أرَها حتى قبل نومي؟ نظرت في الإضاءة الخافتة إلى أبي، فوجدته قد غطى نفسه تمامًا مثلي، حتى الرأس. أيكون هو من فعل هذا؟ لكنني أشعر أنه نام قبلي، فهل صحا وشعر بلسعة بردٍ مثلًا، جعلته يدثرنا نحن الاثنين، بهاتين الملاءتين البيضاوتين؟

أفقت من أفكاري مجفلًا، وأنا أراه يعتدل جالسًا إلى جواري، والملاءة لا تزال تغطيه حتى الرأس، في منظر جمد الدم في عروقي، وقد بدا لي كأنه شبح أو.. أو جثة! وهنا طرقت الفكرة عقلي فجأةً! ما يغطينا ليس ملاءتين بل.. كفنين!!

لم يعد في عقلي مجال للتفكير، لم يبقَ سوى الخوف، والخوف فحسب، خوف أعنف وأقوى من كل ما مرَّ بي في حياتي كلها، وحتى هذه اللحظة، خوف يشل التفكير بل وحتى الحركة، بل والتنفس ربما، إذ كنت صامتًا مشلولًا مجمدًا في مكاني، لا أعرف إن كان الخوف هو ما جمدني، أم قوة خفية ما، جعلتني أشعر بنوع من الوهن أو الخدر، أو ما يشبه شللًا حقيقيًا،



أعجزني عن تحريك أيِّ جزءٍ أو طرف أو خلية في جسدي.

وهنا جاء الصوت، صوت خرج من ذلك الجسد، لا علاقة له بصوت أبي، ولا حتى بلهجته، أو طريقة كلامه، صوت قال:

- إنت الوحيد اللي شُفتنا.

- ... إ.. إنتوا مين؟؟!

أردت أن أقولها، لكنني لم أستطع. عقلي صرخ بها، وشفتاي تحركتا بها، أو هكذا خيل إليَّ، ولكن بلا أي صوتِ على الإطلاق. لكنني مع ذلك، وجدت ردًا من الجسد المغطى، كأنه سمعني، رغم أنه لم يلتفت نحوي، ولم ينزع حتى الغطاء عن رأسه ووجهه، وهو يجيب:

- إحنا المدفونين تحت الضريح.

****

- بس الضريح فاضي!

بنفس الطريقة، عدت أفكر في الرد، أو أحرك به شفتي همسًا، وبصعوبةِ، دون أن أسمعه أنا نفسي، فيسمعني الرجل رغم ذلك، ويقول:

- الضريح مافيهوش أوليا، لكن مليان بالمدفونين، بالمقتولين. اللي قتلهم لسه حي. وانت الوحيد القادر على وضع حد لكل ده.

- أنا؟!

- دي إرادة ربنا.

- وليه أنا بالذات؟!!



- عشان ربنا اختارك.

- ليييه؟؟!! أنا فيَّا إيه زيادة عن أي حد؟! أنا حتى مش متدين قوي.. ده أنا باقطَع في الصلاة!!

- سبحانه علام الغيوب، يعلم ما في القلوب.

- وانتوا عايزين مني إيه بالظبط؟ المفروض أعمل إيه؟؟

- إحنا ستة، والليلة هنبقى سبعة، بس إحنا عايزينك تخلي الكلب ده التامن بتاعنا.

تذكرت الرجل ذا الملابس الداكنة، الذي رأيته في الرؤيا يهبط بالجثة أسفل الضريح، والحلم الذي رأيت فيه الجثث المكفنة والإمام و..!

- أقتله؟؟ أقتل الإمام؟!!

- ومين جاب سيرة الإمام؟

- أمال مين القاتل؟؟

- القاتل هو الخادم، خادم المقام

****

- الراجل الطيب الغلبان ده؟!!

- لا طيب ولا غلبان. ده مجرم..

- طب وهو بيعمل كده ليه؟؟

- فاكر نفسه بيصلّح الكون. بيختار ضحيته على أساس أخلاقي. بيلبس عباية غامقة ويتلثم وينزل بالليل يراقب الناس، واللي سلوكه مايعجبوش، يتقتل. اللي بيشرب خمرة، واللي بيعرف ستات، وهكذا. وبيحاول دايمًا يخلي ضحيته من الأغراب أو من بره



البلد، عشان ماحدش ياخد باله لو الشخص ده اختفى فجأة. بيقتل القتيل، ويكفنه، ويدفنه تحت المقام، وهو شايف إن ده أنسب مكان للدفن، لأنه متصور إن حلقات الذِّكر والحضرات، ودعوات الناس اللي بتزور، كفيلة بغسل ذنوب المخطئين، من وجهة نظرة، وتطهيرهم.

- طب.. أنا لسه مش فاهم.. أنا المفروض أعمل إيه؟؟

- هو بقى له كام يوم بيراقب واحد حاطُه في دماغه، والليلة هيقتله. إنت هتروح المقام دلوقت، وهناك هتعرف تتصرف.

- هاعرف أتصرف إزاي؟!!

- بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

هنا هبط الغطاء الأبيض، كأن الجسد أسفله قد اختفى فجأةً، ثم اختفى الغطاء نفسه، وعدت أرى حدود جسد أبي النائم بعمقٍ، وبطريقة طبيعية تمامًا، كأن شيئًا لم يكن.

****

ومع اختفاء الجسد، وجدت إحساس التصلب والوهن قد اختفى عن جسدي فجأةً هو الآخر، لأجد نفسي أعتدل جالسًا، ثم أنهض عن الفراش كله، كأنني مبرمج أو مسلوب الإرادة، لكنني لم أكن كذلك، كنت واعيًا أعرف وأشعر بكل ما أفعله تمامًا، لكنني أفعله بسهولةٍ ويُسرٍ لا معقولان، كأنني أحلم، كأن جسدي لا وزن ولا إحساس مادي له، أو كأنه لا يتأثر بقدرات بشرية، ولا



جاذبية أرضية. وما حدث بعد ذلك، كان أغرب ما حدث لي في حياتي كلها، حتى أنني، إلى هذه اللحظة، لا أعرف كيف أعرّفه أو أصفه بشكلٍ صحيحٍ تمامًا.

كانت الخطوة.. تنقلني أمتارًا فجأةً! كأنني أقفز، لا مسافات فحسب، بل حواجز كذلك. مررت من باب القاعة الصيفي وباب المنزل، وكل عائقٍ في طريقي، كأنه لا وجود مادي لهم، أو لا وجود مادي لي. سرت في طرق الكفر بسرعةٍ غريبةٍ كأنني أطير، فلا أشعر بالزمن وهو يمر، ولا حتى بملامسة قدمي الحافية لتراب الأرض، حتى وصلت أخيرًا إلى الضريح.

وجدت الأضواء مطفأة، والباب الرئيسي مغلق، لكنني لمحت ضوءًا خافتًا يتسلل من نوافذ غرفة المقام، فدرت حولها، لأجد بابها، الباب الجانبي الصغير، مواربًا، ومن خلال فرجته، وعلى ضوء كشاف صغير موضوع على الأرض، رأيت نفس المشهد الذي رأيته سابقًا خلال الحضرة، لكن من زاوية مختلفة هذه المرة. دخلت، ورأيت الخادم الملثم وهو يصعد للسطح بعد أداء مهمّته، لتتسع عيناه فور وقوعهما عليّ، وهو يحدق بي في غير تصديق، ثم يقول:

- إنت..! إزاي؟!!

لم أجبهُ، ولم ينتظر هو إجابة كذلك. بدا وكأنه تدارك مرحلة الذهول بسرعةٍ، لينتقل إلى مرحلة التصرف فيما حدث، إلى مرحلة التخلص منّي بالطبع، بعد أن شاهدته يفعل ما فعل. فهمت هذا حين رأيته يُخرِج سكينًا كبيرًا



من طيات ملابسه، ويندفع به نحوي. أجفلت للحظة. لم يكن معي أي شيء أدافع به عن نفسي. كل ما فعلته هو أن رفعت يدي باتجاهه، كأنني أحمي نفسي، أو أدفعه عني. الغريب أنني لم أدفعه فعليًا، بل إن يدي لم تمسه أصلًا، لكنني وجدت عينيه رغم ذلك تتسعان، وجسده يترنح، كأنني دفعته فعلًا! لأرى الذهول في عينيه وهو يسقط في الفتحة، التي لم يكن قد أغلقها بعد، ثم أسمع صوت صراخه المتقطع إثر تخبط جسده بالدرجات الصخرية وهو يهبط إلى أسفل، حتى انقطع صوته تمامًا. هل مات؟ هل فقد وعيه فحسب؟ لا أعرف. لكنني هرعت إلى الفتحة وأغلقتها، وأعدت الرمال والبلاطات والبساط فوقها، ثم عدت من حيث أتيت، وكما أتيت، في لمح البصر.

****

في صباح اليوم التالي، فوجئت بأبي يطلب مني الاستعداد للرحيل عن الكفر. الغريب أنه لم ينوه عن أي نية لهذا ليلة أمس، إطلاقًا. ولا أعرف لما ربطت ما حدث معي، بقراره المفاجئ هذا، وكأن القدر شاء أن نبقى فقط، حتى يتم ما تم. كان إحساس الخوف قد زال عني تقريبًا، كأن مناعة ما، قد تكونت في داخلي ضده، كأنه لم يعد هناك ما يمكن أن يخيفني في هذا العالم، بعد كل ما رأيت، ثم إن شيئًا لم يحدث فعلًا، توقفت كل الأحداث والرؤى الغريبة فجأة، وكأن كل شئ قد عاد أخيرًا إلى السكينة والهدوء، فيما عدا حدث



واحد أخير.

كنت سارحًا بفكري، وأنا أستقل سيارتنا بجوار أبي، أفكر في مصير الخادم، في آخر لقطة وقعت عيناي عليه فيها. أتذكر عيناه المذعورتان وصراخه الملتاع، وصمته التام الأخير. أتراه كان حيًا حين أغلقت عليه قبره؟ اقشعر بدني من الفكرة، وأبي ينطلق بالسيارة في طريق الخروج من الكفر. نظرت من النافذة وكأنني أودع ذكرياتي فيه، لأفاجأ بتلك الذكريات، وهي تودعني بدورها.

رأيت صفًا من سبعة رجال، متبايني الهيئة والملبس، يظهر على كل منهم إصابة مميتة ما، بطن مبقور أو عنق مجذوذ، أو حتى رأس مقطوعة بالكامل، ورغم ذلك، فقد كانوا جميعًا هادئين مبتسمين، يتابعونني بأعينهم، وعلى وجوههم نظرة امتنان وتقدير.

تمّت

